حياة المجتمعات

«٦»

غرائب النظم والتقاليد والعادات

الدكتور علي عبد الواحد وافي

الجزء الثاني

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقي

حياة المجتمعات

«٦»

غرائب النظم والتقاليد والعادات

تأليف

الدكتور علي عبد الواحد وافي

دكتور في الآداب من جامعة باريس
عضو المجمع الدولي لعلم الاجتماع
رئيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية
بجامعة القاهرة سابقا

الجزء الثاني

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقي

الباب الخامس

من غرائب الانحراف في الغرائز

تحت تأثير النظم والتقاليد والعادات

الفصل الأول

أكل لحوم البشر

(الانحراف فى غريزة الغذاء)

— ١ —

مدى انتشار هذه العادة
واختلاف مظاهرها وطرائقها باختلاف الشعوب

انتشرت هذه العادة لدى عدد كبير من الشعوب البدائية وغيرها ، وخاصة فى جنوب أفريقيا وغربها ووسطها (الكنغو البلجيكية والفرنسية وأقاصى السودان الجنوبى وخاصة فى عشائر نيام نيام Niams -Niems)[١] ، ولدى طائفة من عشائر السكان الأصليين لأستراليا وأمريكا وخاصة أمريكا الجنوبية والوسطى ، وطائفة من عشائر السكان الأصليين لأرخبيل الملايو وميلانيزيا وبولينزيا وأندونسيا وبعض شعوب آسيا. وتوجد أدلة كثيرة على أن هذه العادة كانت منتشرة فى بعض المناطق الأوربية كذلك .

---

(١) عشائر نيام — نيام أو زندى Niams - Niams, ou Nyams - Nyams, ou Zandé . يبلغ عدد أفرادها زهاء مليونين اثنين يسكنون السودان الشرقى بين النيل والكنغو وبحيرة تشاد . ويمتازون بشعورهم الفاحمة المجعدة ، وطول قاماتهم وأطرافهم السفلى . وقد ظن بعض الرحالة أن لهم ذيولا ، لأنهم كانوا يسترون عوراتهم بجلود تتدلى من أطرافها الخلفية قطع مبرومة طويلة تشبه الذيول وتبدو كأنها جزء من جسم الإنسان . وهم يسكنون الغابات ، ويتجه قسط يسير من نشاطهم إلى الزراعة ، أما معظمه فيتجه إلى الصيد وصناعة الفخار والسلال والخناجر والسيوف والحراب . وكان لحم البشر من أزكى اللحوم لديهم . ولكن يظهر أنهم قد أقلعوا الآن عن هذه العادة أو قلت رغبتهم فى هذا النوع من الطعام .

وقد اختلفت طرائقها ومظاهرها اختلافا كبيراً باختلاف الشعوب التى أخذت بها .

ففى بعضها كان يؤكل جميع أجزاء الجسم الإنسانى ماعدا العظام ؛ بينما كان آخرون لا يأكلون إلا أجزاء خاصة من الجسم كالقلب والكبد والكليتين .

وفى بعضها كان يقتصر على جثث المتوفين والمحتضرين من الناس ، بينما كان آخرون يفترسون كذلك الأحياء أنفسهم ويأكلون لحومهم .

وفى بعضها كان يقتصر على أكل جنس الذكور أو جنس الإناث ، أو على أكل الآدمى فى مرحلة خاصة من مراحل العمر كالطفولة والشيخوخة ؛ بينما كان آخرون لا يفرقون بين جنس وجنس ولا بين مرحلة وأخرى .

وفى بعضها كان لا يسمح بأكل لحم البشر إلا للذكور ، أما الإناث فكان هذا النوع من الطعام محرما عليهن إلا فى حالات خاصة حددتها التقاليد ، وفى بعضها كان لا يسمح بذلك إلا للعجائز من الذكور والاناث ؛ ولكن عند معظم آكلى لحوم البشر كان ذلك مباحا للجنسين على السواء فى مختلف مراحل العمر .

وفى بعضها كان يقتصر على أكل لحوم الأعداء وأسرى الحروب والأجانب عن القبيلة ؛ وفى بعضها كان يقتصر على أكل لحوم الأقرباء ؛ وفى بعضها كان الغالب أن يكون المأكول من الأجانب مع جواز أن يكون من غيرهم ؛ وفى بعضها كان الغالب والأفضل أن يكون المأكول من الأقرباء مع جواز أن يكون من الأجانب ؛ بينما كان آخرون لا يفرقون بين قريب وبعيد . ولعل أشد هؤلاء غرابة هم الذين كانوا يقتصرون على أكل لحوم الأقرباء . ومن أظهر أمثلتهم عشائر البنغال وطائفة من قبائل السكان الأصليين لأستراليا . فى عشائر البيرهور Birhors فى البنغال (المناطق الوسطى من الهند) كان لا يؤكل لحم العدو ولا الأجنبى ، وإنما كان يقتصر على أكل من يصل إلى مرحلة الشيخوخة من الأقرباء . وفى بعض العشائر الأسترالية كان يقتصر على أكل المتوفى

من الأقرباء . وفى عشائر الديبرى Dieyerie الأسترالية كان لا يؤكل كذلك إلا لحوم المتوفين من الأقرباء ، ولكن بحسب نظام خاص يحدد قرابة الآكل من المأكول : فكانت الأمهات يأكلن لحوم أولادهن ، والأولاد لحوم أمهاتهم ، وأخو الزوجة وزوجها يأكل كلاهما الآخر عقب وفاته ، وأخت الزوج وزوجته تأكل كلتاهما الأخرى ... ووضع لغير هؤلاء من الأقرباء كالأعمام والأخوال وأولاد الأخ وأولاد الأخت والأجداد والجدات والأحفاد نظم أخرى تحدد الآكلين منهم والمأكولين . وما كان يسمح لغير من حددته هذه النظم أن يأكل جثة متوفى من أقربائه . فما كان يسمح مثلا للأب أن يأكل أحد أولاده ، ولا لأحد من الأولاد أن يأكل جثة أبيه .

وفى بعض هذه الشعوب تبدو هذه العادة طبعا أصيلا من طباع أهلها ؛ وفى بعضها ما كان يلجأ إلى ذلك إلا فى سنى المجاعات والجدب ؛ بينما كان آخرون لا يمارسون هذه العادة إلا فى مناسبات خاصة كالمناسبات الدينية وما إليها .

— ٢ —

أسباب هذه العادة وما ترمى إليه

وقد نشأت هذه العادة أو تطورت عند بعض الشعوب نتيجة لعدم وجود غذاء حيوانى آخر أو لندرة هذا النوع من الغذاء أو لحدوث قحط أو مجاعة . فتوالى المجاعات وإقفار المنطقة من غذاء حيوانى كاف هو الذى أدى — فى نظر الرحالة إليس Ellis — إلى نشأة هذه العادة لدى السكان الأصليين فى جزر بحار الجنوب Iles des mers du sud (پولينزيا) . وفى عشائر النوكاهيفى Naukahiviens (أستراليا) كان يقتصر فى الأوقات العادية على أكل جثث من يقتل من الأعداء فى أثناء الحروب ؛ ولكنهم كانوا فى سنى المجاعات القاسية يقتلون نساءهم وأولادهم ويأكلون لحومهم . ولوحظ كذلك لدى بعض القبائل فى شمالى استراليا وغربيها ولدى قبائل الهنود الحمر التى تسكن شمالى البحيرة العليا

Lac Supérieur (أمريكا الشمالية) أنه لا يلجأ إلى أكل لحوم البشر إلا فى سنى المجاعات وفى أوقات الحصار الحربى . وحينئذ قد تدعو الضرورة الآباء أنفسهم إلى أكل لحوم أولادهم .

ولوحظ كذلك أن بعض عشائر الإسيكمو التى تسكن سواحل خليج هدسن لم تلجأ إلى أكل لحوم البشر إلا بعد أن أصيبت بسنى مجاعة وقحط شديدين وبعد أن أكلت جميع مالديها من كلاب وملابس وجلود .

وقد وصف الرحالة المؤرخ الطبيب العربى الشهير عبد اللطيف البغدادى فى كتابه « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » (وهو وصف لرحلته إلى وادى النيل فى نهاية القرن السادس الهجرى ونهاية القرن الثانى عشر الميلادى) ماشاهده من مظاهر المجاعة التى ألمت بمصر فيما بين سنتى ٥٩٥ و ٥٩٨ هـ (١١٩٨ — ١٢٠١ م) فذكر أن الفقراء ، لشدة المجاعة عليهم ، كانوا ينبشون قبور الموتى ويلتهمون جيفهم ، وكانوا يقتلون أولادهم ويأكلون لحومهم ، وأن هذه الفظائع كانت لغرابتها فى مبدأ الأمر موضع دهشة الناس وحديثهم الذى لا ينقطع فى غدوهم ورواحهم وساعات عملهم وسمرهم . ولكن لم يلبث المصريون ، لامتداد المجاعة لديهم وطول ممارستهم لأكل لحوم البشر ، أن أصبحت هذه الفظائع أموراً عادية ، بل أخذ كثير من الناس يجدون لذة فى هذا النوع من اللحوم . فأصبحت لحوم الأطفال من أزكى أنواع الطعام عند كثير من الطوائف ، وأصبحت تؤكل للذة لا لضرورة المجاعة ، واخترع الناس طرقاً عديدة لطهو هذه اللحوم وسلقها وشيها وتقديدها وتعبئتها وحفظها فى التوابل . وانتشر ذلك فى جميع أرجاء البلاد حتى لم تبق قرية من قرى مصر لم يصبح فيها أكل لحوم البشر أمراً مألوفاً. وحينئذ انقطع حديث الناس عن ذلك. ولم تثر هذه الأعمال لديهم نفوراً ولا اشمئزازاً ، ولم تعد مقصورة على الفقراء والمعوزين من الناس، بل إن كثيراً من أغنياء القوم أنفسهم الذين كان من الميسور لديهم الحصول على أطعمة أخرى كانوا يؤثرون اللحم الإنسانى ، ويعتبرونه من

مظاهر الترف والأبهة . بل لقد كانوا يستأجرون بعض المجرمين والسفاحين ليصيدوا لهم الأطفال والشبان لتزدان موائدهم بلحومهم . وكان أرقى ما يقيمونه من مآدب هي المآدب التي يقدمون فيها هذا الصنف الفاخر من اللحوم ، وكانوا لا يكتمون عن أصدقائهم من المدعوين حقيقة الأمر ، بل كانوا يفخرون بذلك ويعدونه مبالغة في الحفاوة بالمدعوين وفي إكرامهم . ويختم حديثه هذا بقوله . « ولو أخذنا نقص كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أو في الهذر . وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانه ، وإنما هو شيء صادفناه اتفاقاً بل كثيراً ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره » .

ويصف المقريزي في كتابه « إغاثة الأمة ، بكشف الغمة[1] » إحدى المجاعات التي حدثت في مصر في أيام المستنصر (خامس الخلفاء الفاطميين في مصر ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ = ١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) واستمرت نحو سبع سنين كان أشدها وطأة سنتي ٤٥٩ و ٤٦٠ هـ ، فيذكر أنه قد استولى الجوع ، وأكل الناس القطط والكلاب ، واختطف الإنسان من الطرقات ليؤكل ، فوقف الناس في الطرقات يأكلون من ظفروا به ، ويخطفون الآدميين بالكلاليب ، وبيع لحم الإنسان عند الجزارين ، وأكل الناس الجيف وأكل بعضهم بغلة الوزير نفسه ، فلما شنق الذين اتهموا بأكلها لم يتورع الناس عن أكل جثثهم تحت ظلام الليل .

ولكن شعوبا أخرى كثيرة ظهر لديها أكل لحوم البشر في صورة عادة أصيلة غير مرتبطة بقحط أو مجاعة أو ندرة في الغذاء الحيواني . فكان الإنسان عندها في عداد الحيوانات مأكولة اللحم ، بل كان عند كثير منها من أزكى هذه الحيوانات طعاما ، وألذها مذاقا . فقبائل الفيدجيين Fidjiens (تسكن أرخبيل

---

(١) تناول المقريزي في هذا الكتاب تاريخ المجاعات في مصر وأسبابها ، فذكر منها ستا وعشرين مجاعة وقع منهـا قبل الإسلام ست مجاعات ووقع منها بعد الإسلام عشرون مجاعة ، ولا يذكر المقريزي هذه المجاعات على سبيل الحصر ، فهناك مجاعات أخرى كثيرة حدثت في مصر ولم يعرض لها في كتابه .

فيدچى Fidji فى ميلانيزيا بين هبريد الجديدة وجزائر تنجا) — التى تعد فى مقدمة آكلى لحوم البشر ، والتى يضرب أفرادها المثل فى حديثهم بلحم البشر فى لذة الطعم وحسن المذاق ، فيقولون إن طعم هذا الشىء لذيذ كطعم لحم آدمى — تسكن مناطق غنية بخيراتها وما تجود به من غذاء حيوانى ونباتى . — وكذلك الشأن عند آكلى اللحوم من قبائل السكان الأصليين للبرازيل: ففى منطقتهم تعزر الأسماك والحيوانات وتزيد كثيراً عن حاجة السكان للغذاء الحيوانى. — وفى أفريقيا تنتشر كذلك هذه العادة فى منـــاطق غنية كل الغنى بثرواتها فى الحيوان والنبات . فقبائل البنغالا فى أعالى الكنغو لا ينفكون يشنون الغارات على القبائل المجاورة لهم للحصول على أسرى يأكلون لحومهم ، مع أن منطقتهم من أغنى مناطق العالم فى النبات والحيوان والأسماك . وقبائل الهوتنتوت Hottentot (على ضفاف نهر أورنج بجنوب أفريقيا) لا تكتفى بخطف الآدميين من القبائل المجاورة لأكل لحومهم ، بل كثيراً ما يقع التخاطف بينهم هم أنفسهم للغرض نفسه ، على الرغم من سعة مناطقهم وغناها بالثروة الحيوانية وخصوبة أرضها .

وقد يكون الباعث على أكل لحوم البشر مجرد الرغبة فى التشفى والانتقام والأخذ بالثأر من القاتل . فقبـائل التيبى Typies التى تسكن جزر المركيز Marquises لا يأكلون إلا جسوم أعدائهم ولمجرد إشباع رغبتهم فى الانتقام . — والسكان الأصليون لجزر سليمان Salomon بميلانيزيا لا يأكلون كذلك إلا لحوم خصومهم ولا يفعلون ذلك إلا بقصد الإمعان فى إذلالهم والتنكيل بهم ، إذ يرون أن أكل لحم الكائن هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه إهانته وتحقيره . — ولوحظ هذا الباعث كذلك عند طوائف أخرى كثيرة من آكلى لحوم البشر ، وخاصة الساموائيين والماوريين وبعض عشائر السكان الأصليين لزيلندة الجديدة . — ومثل هذا كان يحدث عند العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام ، فقد أكلت هند امرأة أبى سفيان وأم معاوية كبد حمزة عم الرسول عليه السلام بعد أن قتل فى غزوة أحد انتقاما لمن قتل من أهلها فى غزوة بدر .

وفى بعض الشعوب كان يعتبر أكل لحم الإنسان عقوبة توقع على مرتكبي بعض الجرائم الخطيرة . فكان فى نظرها طريقة من طرق الإعدام أو ملحقا لازما من ملحقاته ، كالشنق والضرب بالرصاص وقطع الرأس بالمقصلة أو السيف والصعق بالتيار الكهربائى وما إلى ذلك من الوسائل المستخدمة فى الوقت الحاضر. ففى بعض جزر هيبريد الجديدة l'île des Lépreux, Nouvelles Hebrides لم يكن المأكول لحومهم من أسرى الأعداء ولا من قتلاهم فى الحروب ، وإنما كانوا من مرتكبي بعض الجرائم الخطيرة كالقتل وما إليه . — وعند قبائل الباتاك Bataks فى سومطرة ، يوقع هذا الجزاء كذلك على المحكوم عليهم بالإعدام فى بعض الجرائم الخطيرة وخاصة بعض جنايات القتل والزنا والخيانة الوطنية ، وكان الموتوروث وأقرباؤهم هم الذين يعهد إليهم بأكل المجرمين. — وفى ميلانيزيا ، حيث تقضى التقاليد بأن يؤكل أجزاء من الضحية الآدمية التى تقدم إلى الآلهة ، ينتهز فرصة وقوع جريمة ، فيعمد إلى من تثبت عليه ، أو من تلصق به على وجه ما ، ويقدم قربانا للآلهة ، ويؤكل بعض أجزائه .

وقد يكون الباعث على أكل لحوم البشر مجرد الرغبة فى إضعاف الميت وجعل روحه عاجزة عن إحداث ضرر أو إلحاق أذى بالأحياء . فهو فى هذه الحالة وسيلة للوقاية من الشر والقضاء على مصادره . فعند قبائل البوتوكودو Botocudos يعمد المحاربون إلى أكل لحوم القتلى من أعدائهم لا لشيء إلا لمجرد الرغبة فى وقاية أنفسهم مما عسى أن تلحقه بهم أرواح هؤلاء القتلى من أضرار لو بقيت أجسامها سليمة . فالقضاء على الجسم بأكله ينطوى فى نظرهم على القضاء على الروح نفسها.

وعند كثير من آكلي لحوم الأعداء يقتصر على أكل الأعضاء التى يعتقد أنها مقر الروح أو مركز القوة والإقدام ، ويعتقد أن ذلك يجعل روح صاحبها عاجزة عن أن تثأر لنفسها من الأحياء أو تلحق بهم ضرراً ما . ففى جزيرة جروئنلاند يعتقد أن روح القتيل مزودة بقوى تستطيع بفضلها أن تثأر لنفسها من القاتل على أقسى وجه وأعنفه، وأنه لا يمكن اتقاء أذاها إلا بأكل قطعة من كبد صاحبها. —

وقد جرت العادة عند السكان الأصليين لكوينسلاند Queensland عند ما يقتلون عدواً لهم أن يأكلوا كليتيه لاعتقادهم أنهما مركز القوة والحياة. — وعند قبائل الماؤورى Maoris بشرب دم الأعداء وتؤكل قلوبهم ويحتفظ للرؤساء بعيونهم اليسرى، لاعتقادهم أن الدماء والقلوب والعيون اليسرى هى مقر القوة والجرأة والحياة. وأن أكلها يجعل أرواح الأعداء عاجزة عن أن تلحق أى ضرر بالأحياء.

وقد يكون الباعث على أكل جسم العدو أو القريب أو جزء خاص من أحدهما رغبة الآكل فى أن تنتقل إليه صفات المأكول جميعها أو القوى التى يعتقد أنها كامنة فى بعض أجزائه. فقبائل الشوشون Chochone (من الهنود الحمر) كانت تعتقد أن شجاعة العدو وجرأته تنتقلان إلى آكل لحمه وقد جرت العادة عند الهورونيين Hurons (إحدى عشائر قبيلة الإيروكوا Iroquois من الهنود الحمر بأمريكا الشمالية) عند ما يعجبون بشجاعة أحــد أعدائهم فى القتال أن يحرصوا على أسره وينتزعوا قلبه ويشووه، ثم يقطعوه إربا صغيرة يوزعونها على شبانهم وفتيانهم ليطعموها حتى تنتقل إليهم صفاته.

ويعتقد سكان ساحل العبيد Côte des Esclaves (على ساحل أفريقيا الغربى بجوار ساحل الذهب) أن القلب موطن الحكمة والذكاء والشجاعة معاً؛ ولذلك يحرصون على أكل قلوب من يقع أسيراً فى أيديهم ممن عرف عنهم عمق التفكير وحدة الذكاء وقوة الإقدام. — وجرت العادة فى عشائر الكينبوندا Kinbunda بأفريقيا الجنوبية الغربية عند ما يتوج ملك جديد، أن يختار من بين الأسرى أكثرهم شجاعة، ويقطع جسمه، ويطعم منه الملك الجديد وأفراد أسرته، لتنتقل إليهم صفاته، ويتسم العهد الجديد بقوة الإقدام والظفر على الأعداء. — وفى بعض عشائر أستراليا الوسطى لا يأكل لحم البشر إلا العجائز من الرجال والنساء، ولا يأكل هؤلاء إلا لحوم الأطفال الصغار، معتقدين أن ذلك ينقل إليهم نضارة ضحاياهم ويعيد إليهم شيئاً من شبابهم. — وفى عشائر أخرى من هذه المنطقة نفسها تذبح البنت ليطعم منها أخوها إذا انتابه هزال أو ضعف لتنتقل إليه حالتها الصحية السليمة ويشفى من علته.

وقد يكون الباعث على أكل اللحم الإنسانى أن تنتقل إلى الآكل البركة التى يتلبس بها من يقدم قربانا إلى الآلهة من الآدميين . فعند السكان الأصليين لفلوريدا (أمريكا الشمالية) لا يؤكل لحم البشر إلا فى مناسبات تقديم القربان الإنسانية . ولا يؤكل لحم إنسانى إلا من هذه القرابين . — وفى جزر هوايا (بولينزيا Hawaï archipelde Polénisie) لا يعد الإنسان من الحيوانات المأكولة اللحم ، ولا يتناول الناس اللحم البشرى فى غذائهم العادى ، وإنما يفعلون ذلك فى المناسبات الدينية فحسب ، فيتناولون قطعا من الأضحية الإنسانية التى تقدم للآلهة بقصد التبرك بها والإفادة مما تلبست به فى أثناء تقديمها من قوى وخصائص وصفات . — وفى نيجيريا كانت طقوس الأضحية الإنسانية التى تقدم إلى الآلهة لا تعد كاملة إلا إذا أكل منها الرؤساء الدينيون وبعض طوائف الشعب . — وفى عشائر الأزتك Aztèques (السكان الأصليون للمكسيك) حيث كان يبلغ عدد من يقدم ضحايا للآلهة من الآدميين زهاء خمسين ألفاً كل عام(١) كانت تؤكل من كل أضحية إنسانية الأجزاء التى انبثق منها الدم فى أثناء تقديمها فى المذابح الدينية . — وقد جرت العادة لدى السكان الأصليين لنيكاراجوا Nicaragua (بأمريكا الوسطى) أن توزع الأضحية الإنسانية التى تقدم إلى الآلهة بنظام خاص على طبقات العامة والخاصة ليطعموا منها : فيعطى قلبها لكبار رجال الدين ؛ وأطرافها للملك ؛ وفخذاها لمن أسرها ؛ وأمعاؤها لمن يدقون طبول الحرب ؛ ويفرق ما بقى منها على طبقات الشعب الأخرى .

وفى بعض الأحوال كان يعتقد أن أكل لحم الإنسان أو شرب دمه يحقق فوائد روحية أو طبية للآكل أو الشارب ، وكان الناس لا يقدمون على ذلك إلا لتتحقق لديهم هذه الفوائد . فعشائر البنكيين بميلانيزيا (سكان جزائر بانك Banks بميلانيزيا) كانوا يعتقدون أن ذلك يزود الآكل أو الشارب بقوى

---

(١) انظر ص ٨٩ من الجزء الأول من هذا الكتاب .

وخصائص لا تقل كثيرا عن قوى الآلهة وخصائصهم . — وفى أستراليا كان يعتقد أن السحرة والأطباء قد اكتسبوا القدرة على السحر وشفاء المرضى من أكلهم للحوم البشر . — وقد جرت العـادة لدى السكان الأصليين لتسمانيا Tasmanie أن يحفظ الدم الإنسانى وتتناول جرع منه للتقوية والشفاء من بعض الأمراض . — وفى الصين القديمة كان الناس يأكلون قلوب المحكوم عليهم بالإعدام وأكبادهم ويشربون دماءهم معتقدين أن ذلك يفيدهم فى تقوية أجسامهم وسلامة صحتهم . — وفى بكين يجمع الدم المنبثق من المحكوم عليه بالإعدام عندما تقطع رأسه ، ويغمر فى دمه بعض أنواع النخاع ، ويباع هذا المزيج — الذى يطلقون عليه اسم « الخبز الدموى » Pain de sang — على أنه دواء ناجع للمصابين بفقر الدم (الأنيميا) .

وقد يكون الباعث على ذلك شدة العطف على الشخص ، والشفقة عليه ، والتفانى فى حبه ، والحرص على أن يمتزج جسمه بجسم الآكل ، وأن يتخذ مقره الأخير فى جوفه وأحشائه فلا يذهب شيء منه إلى التراب . وتبدو هذه البواعث على الأخص عند الشعوب التى يأكل فيها الناس المتوفين من أبنائهم وآبائهم وأهليهم وأحبائهم وذوى العاهات من أقربائهم ومن يبلغون منهم أرذل العمر . فقبائل الديبرى Diyerie الأسترالية تعتقد أنه إذا لم يؤكل المتوفون من الأقرباء فإن أرواحهم لا يستقر لها قرار ولا تنعم بهدوء ، وتصبح مصدر شر مستطير للعشيرة . — وعشائر الباتاك بسومطره Les Bataks de Sumatra يعتقدون أنهم إذ يأكلون العجائز وذوى العاهات من أقربائهم لا يفعلون ذلك لإشباع نهمهم الغذائى ، وإنما يفعلونه رحمة بهؤلاء وإشفاقا عليهم . — وعند عشائر البوتوكودوس Botocudos تأكل الأمهات المتوفين من أولادهم بدافع من العطف والحنان . — وتعتقد عشائر الميوروونا Mayorunas أنه أكرم لجثة القريب أن يأكلها قريبة من أن تترك طعاما للدود والحشرات .

— ٣ —

أكل لحوم البشر لا يستلزم التوحش ولا قسوة الطبع
إشراف هذه العادة على الانقراض

وقد لاحظ الباحثون أن هذه العادة ليست ملازمة للتوحش ولا لقسوة الطباع ، وأن معظم الشعوب التى تمارس أكل لحوم البشر شعوب سوية تمتاز بالوداعة ولين الخلق واحترام النظام الاجتماعى ؛ بل لوحظ أن انتشار هذه العادة عند البدائيين الذين وصلوا إلى مستوى لا بأس به من الثقافة والنظام أوسع من انتشارها عند العشائر الممعنة فى البدائية والبعد عن أسباب الحضارة . فعشائر الكابر والجوييوناڤى والكارايبب Cabres, Guipunavis, Caraïbes (من السكان الأصليين لأمريكا) تعد من أقوى عشائر الأورينوك Orénoques وأرقاها وأدناها إلى الحضارة . ومع ذلك فهى وحدها ، من بين عشائر الأورينوك جميعا ، التى انتشر فيها أكل لحوم البشر ؛ بينما أخواتها المتأخرة عنها فى الحضارة تنفر منه كل النفور . — ومع أن عشائر التوپيس التى تسكن أواسط البرازيل تعد من أرقى عشائر هذه المنطقة حضارة ونظاما ، فإنها تمتاز بعراقتها فى أكل لحوم البشر . — وعشائر الفيدجيين (تسكن أرخبيل فيدجى Fidji فى ميلانيزيا ، بين هبريد الجديدة وجزائر تنجا) والماوريين Maoris (السكان الأصليون لزيلندة الجديدة) ، التى تعد فى مقدمة آكلى لحوم البشر ، كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الحضارة ، وكانت أرقى كثيراً من جيرانها الذين كانوا لا يمارسون هذه العادة . — وعشائر الباتاك بسومطرة Bataks ، التى تأصل فيها أكل لحوم البشر ، قد وصلت فى سلم الحضارة إلى درجة جعلتها تخترع حروفا أبجدية لتدون بها منتجات أفكارها ، متأثرة فى ذلك بحضارة جيرانها الهنود . — وما لاحظه الباحثون بهذا الصدد فى أمريكا وآسيا وأستراليا لوحظ مثله فى أفريقيا . فعشائر الأقزام فى أواسط أفريقيا les tribus naines de l'Afrique Centrale ، التى تنفر

كل النفور من أكل لحوم البشر، لا تعد شيئا مذكورا فى الحضارة والتقدم إذا قيست بعشائر النيام نيام Niams - Niams والمنبوتو Monboutou التى يضرب بها المثل فى النهم إلى هذا الصنف من اللحوم .

وفى هذا يقول شاليه Félicien Challaye فى كتابه عن الكنغو الفرنسية Le Congo Français (الذى ظهر سنة ١٩٠٩) : « إن آكل لحم البشر ليس انسانا متوحشا مجردا من طبيعته الإنسانية ، بل إنه إنسان عادى ، بل قد يكون رحيما دمث الأخلاق ، ولكنه يعد أخاه الإنسان فى جملة الحيوانات مأكولة اللحم ، بل يفضل أحيانا لحم الإنسان على لحم غيره من الحيوان » . وقد ذكر قصة رويت له ، لم تجر حوادثها - على حد قوله - فى أدغال أفريقيا ولا فى قراها النائية ، وإنما جرت فى مدينة من أشهر مدن أفريقيا الوسطى وهى برازافيل Brazzaville عاصمة الكنغو ، ولم يكن أبطالها من متوحشى هذه القارة ، بل كانوا جنودا إفريقيين فى الفرقة الأجنبية فى الجيش الفرنسى ، حصلوا على حظ لا بأس به من الحضارة والثقافة ، حتى إنهم كانوا يجيدون الحديث باللغة الفرنسية. وملخص هذه القصة أن هؤلاء الجنود قد حملوا يوما إلى أحد جراحى الجيش زنجيا قد أصيب منذ أيام فى فخذه بجرح عميق أهمل علاجه حتى سرى فيه التسمم وانتنت رائحته . فلم يجد الجراح وسيلة لإنقاذ حياته إلا بتر فخذه . وبعد أن فرغ من عمليته طلب إليه الجنود أن يعطيهم الفخذ المبتورة ليأكلوها . فقال لهم الجراح إن رائحتها منتنة كريهة وأنها لذلك لا تصلح للأكل . فأجابوه بأنه لا أثر لرائحتها فى صلاحيتها للأكل ، لأنه لا تؤكل رائحة اللحم وإنما يؤكل اللحم نفسه. وقد حاول عبثا أن يثنيهم عن رغبتهم ، ويبين لهم مضار اللحم الآدمى على العموم . ولما رأى منهم إصراراً على ما يريدون ، وعلم أنهم فى حالة دفن الفخذ سينبشون عنها فناء المستشفى ليخرجوها ويأكلوها ، لم يسعه إلا أن يغمرها أمامهم بسائل يعرفون أنه سام يقتل لساعته(١) .

---

(١) V. Challaye : Le Congo Français, p. p. 160, 161 (Paris 1909).

هذا ، وقد انقرضت الآن عادة أكل لحوم البشر عند معظم الشعوب التى كانت تمارسها ، وذلك تحت تأثير الاستعمار الأوروبى ، ومحاربة الأوروبيين المستعمرين لها ، واختلاط هذه الشعوب بغيرها . ـ ولكنها مع ذلك لا تزال إلى الوقت الحاضر متبعة عند بعض العشائر فى أواسط أفريقيا وغيرها .

من أهم مراجع هذا الفصل

Westermarck : L'Origine et le Developpement des Idées Morales .T. II. Chap - XLVI (trad - française, p.p. 537 - 566).

وكان هذا هو أهم مرجع لنا فى هذا الفصل . وقد رجع مؤلفه إلى مئات من المراجع الهامة فى مختلف اللغات ، وأحال القارىء إلى هذه المراجع فى تعليقاته .

Challaye : Le Congo Français (Paris 1909).

Letourneau : L'Evolution de la Morale.

: La Sociologie d'après l'Ethnographie.

عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر

المقريزى : إغاثة الأمة ، بكشف الغمة .

الفصل الثاني

انحراف الغريزة الجنسية

— ١ —

اختلاف مظاهر هذا الانحراف

قد يتخذ إشباع الغريزة الجنسية صوراً شاذة خارجة عن طرق الإشباع الطبيعي . ومن بين هذه الصور صورة كان لها شأن كبير في تاريخ الأخلاق الإنسانية ، وهي التي تتمثل في إتصال شخصين من جنس واحد أحدهما بالآخر ، أي في اتصال الذكر بالذكر والأنثى بالأنثى . وهذه الصورة هي التي يطلق عليها عادة اسم « الشذوذ الجنسي » ، وهي التي ستقتصر عليها دراستنا في هذا الفصل .

* * *

ويبدو هذا النوع من الانحراف الجنسي من وجهة النظر الاجتماعية والخلقية على ثلاثة وجوه . فيبدو في مجتمعات قليلة في صورة تقرها العادات السائدة والقوانين والعرف الخلقي على السواء . ويبدو في مجتمعات أخرى قليلة كذلك في صورة تحتملها العادات السائدة وإن حاربتها القوانين وتنافرت مع العرف الخلقي . ولكنه في معظم الشعوب الإنسانية يبدو في صورة مسلك شاذ لا تقره قوانين الشعب ولا نظمه الخلقية ، ويتنافر كذلك مع عاداته وتقاليده .

وسنقف فيما يلي على كل مظهر من هذه المظاهر الثلاثة فقرة على حدة ، ثم نتكلم بعد ذلك على العوامل التي تؤدي إليه .

— ٢ —

الانحراف الجنسى

حيث تقره نظم الشعب وأخلاقه وعاداته

يبدو الشذوذ الجنسى فى هذا الوضع الممعن فى الغرابة لدى عدد قليل من الشعوب الإنسانية . فالتوراة والقرآن يحدثاننا عن قوم لوط (أهل مدينة سودوم Sodom بفلسطين) ، وأنهم كانوا يأتون الذكران من العالمين ، ويذرون ما خلق لهم ربهم من أزواجهم ، وأن هذه العادة كانت شائعة لديهم جميعا ، فلم يكن منهم « رجل رشيد » ، وأنهم كانوا يفضلون إتيان هذه الفاحشة مع الغرباء عن بلدتهم ، وأن نظمهم القانونية والخلقية كانت لا ترى غضاضة فى مسلكهم هذا ، ولذلك كانت نصائح لوط لهم بالإقلاع عن هذا المسلك موضع سخريتهم وازدرائهم ، بل لقد احتمل منهم فى سبيل رسالته كثيراً من صنوف العنت والأذى ، وأن الله تعالى ، بعد أن أملى لهم لعلهم يزدجرون ، أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فأهلكهم جميعا ، ودمر مدينتهم فجعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل ، بعد أن نجى لوطاً والمستقيمين من أهله(١) .

ومع أنه لا يوجد فى قصائد هوميروس (الإلياذه والأوديسيا(٢)) ولا فى قصائد هيزيود (التيوجونيا والأعمال والأيام(٣)) ما يدل على انتشار هذه

---

(١) انظر على الأخص آيات ٧٧ — ٨٣ من سورة هود (وهى سورة ١١) وآيات ١٦٠ — ١٧٤ من سورة الشعراء (وهى سورة ٢٦) ، ومن آيات هاتين السورتين اقتبسنا كثيرا من عبارات هذه الفقرة . — وانظر الإصحاحين الثامن عشر والتاسع عشر من سفر التكوين .

(٢) انظر كتابنا فى « الشعر الحماسى عند اليونان ومبلغ دلالته على عقائدهم ونظمهم الاجتماعية » .

(٣) انظر كتابنا فى « أقدم البحوث الاجتماعية عند قدماء اليونان — هيزيود والشعر التعليمى ... » .

الفاحشة عند اليونان فى عصورهم السابقة للتاريخ ، فإنه من المحقق أنها قد شاعت لديهم شيوعا كبيراً فى عصورهم التاريخية القديمة حتى أصبحت قريبة من النظم المقررة فى العلاقات الجنسية . صحيح أن قانونا من قوانين أثينا يقرر أن الغلام الذى يفعل هذا الفعل للحصول على المال يجرد من جنسيته ويحظر عليه أن يشهد حفلة من الحفلات التى تقام فى الأعياد الوطنية وأن يجلس فى الساحة الشعبية العامة للمدينة (التى كانت تسمى لديهم أجورا Agorat = principale place publique dans les villes) ، وأنه إذا تسلل إلى حفلة من هذه الحفلات أو إلى ساحة من هذه الساحات يحكم عليه بالإعدام . وصحيح أن قانونا من قوانين إسبرطه يعد عمل الغلام الذى يقبل الفاحشة للحصول على المال جريمة يحكم فيها قضاة المدينة (الأفور Les Aphores) بالنفى أو الإعدام . ولكن كلا القانونين يفيد أن هذا الفعل لا يعتبر جرما إذا كان قد ارتكب بمحض الاختيار وبمجرد إشباع الرغبة لا للحصول على المال ، ويفيد كذلك أنه لا مسئولية على الطرف الموجب فى هذه الفاحشة . هذا إلى أنه من الثابت أنه قد جرت العادة عند قدامى اليونان ، سواء فى ذلك الأثينيون والإسبرطيون ، ألا يبحث فى طبيعة هذه العلاقات ولا فى تفاصيل الباعث عليها للوقوف عما إذا كانت منبعثة عن رغبة أو عن غرض مادى ، وأنها كانت محتملة فى جميع أوضاعها ، بل لقد كانت موضع فخر واعتزاز من مرتكبيها وموضع تحبيذ من الشعب ومن مشرعيه وحكمائه وفلاسفته إذا كانت منبعثة عن حب متبادل . ففى محاورة لكبير فلاسفتهم أفلاطون عن الحب والجمال وهى التى سماها فيدر Phèdre باسم أحد أبطالها ، يقول أفلاطون على لسان فيدر « إنه لا يتصور منزلة من السعادة لغلام فى مقتبل حياته أرقى من أن يحظى بعشيق فاضل ، ولا منزلة من السعادة لرجل أرقى من أن يكون عاشقا لغلام جميل؛ لأنه لا يوجد ما هو أقدر من هذا النوع من الحب فى غرس العادات النبيلة الفاضلة[1] . وكان الشائع عند قدامى اليونان والمتداول على أقلام كتابهم

(١) Platon, Symposium, p. 178, cité par Westermarck op. cit. II, 461.

وفلاسفتهم ان أشد الشعوب مقاومة وصلابة فى الحروب هى التى ينتشر فيها حب الشبان للشبان حبا جنسيا ، وأن جيشا يتألف من شبان يحب بعضهم بعضا هذا النوع من الحب ، ويقاتلون صفا واحداً جنبا لجنب ، لا يقف أمامه أى عدو مهما كان بأسه وقوته ، بل إنه ليستطيع أن يغزو العالم أجمع ويدوخه .

ويدل الأدب اليونانى القديم كذلك على انتشار حب النساء للنساء حبا جنسيا. صحيح أن الانحراف بين النساء لم يوجه إليه من الملاحظة وتقرير الأحكام عند اليونان — ولا عند غيرهم من الشعوب — ما وجه إلى نظيره بين الرجال . ولكن هذا لا يدل على أنه كان أقل انتشاراً منه . فالانحرافات النسائية التى من هذا النوع لا تعرف ولا تستوقف النظر كما تعرف وتستوقف النظر نظائرها عند الرجال . — هذا إلى أن العرف الخلقي لا يعنى بهذا النوع من الانحراف بين النساء كما يعنى بنظائره عند الرجال .

ومع أن قانونا قديما جدا من قوانين روما يسمى قانون « سكنتينيا » أو « سكاتينيا » Lex Scantinia, au Scatinia يعاقب من يرتكب الفاحشة مع غلام حر بغرامة مالية ، فإنه من المحقق أن هذا القانون قد ظل معطلا غير معمول به ، وانه لم يرد فى قوانينهم الأخرى الصادرة فى عصورهم القديمة ذكر لهذا الجرم ولا لعقوبته . على أن هذا القانون نفسه يفيد أنه كان من المباح أن يرتكب هذا الفعل مع رقيق . وتدل روايات الثقات من المؤرخين أن هذا الانحراف كان شائعا شيوعا كبيرا عند قدامى الرومان ، حتى إن معظم بيوت الأغنياء والمترفين ، بل بيوت المتوسطين من الناس ، كانت تزدان بطائفة مصطفاة من الرقيق تتألف من غلمان مخنثين بارعي الجمال يستخدمون فى اللهو والشراب وفى اشباع النزوات المنحرفة لمواليهم . وقد ارتفع ثمن هذا الصنف من الغلمان لشدة الطلب عليه عند قدامى الرومان حتى بلغ فى أواخر القرن السادس الميلادى ، بحسب رواية المؤرخ بوليب Polybe أكثر من ستة آلاف جنيه

بعملتنا الحاضرة (un talent d'or ==à peu près 56000 francs or== 1140 livres or[1]). وفى عصر الإمبراطورية الرومانية جرت العادة فى الأسرات الأريستقراطية عندما يبلغ الغلام الحلم أن يمنح رقيقا جميلا مقاربا له فى السن ليشبع به نزواته الجنسية الناشئة . بل كثيرا ما كان يحدث فى هذا العهد أن يتزوج رجل بغلام وأن يجرى هذا الزواج الغريب فى حفل يشبه الحفل الذى يقام للزواج العادى .

ولهذه الأوضاع أشباه ونظائر لدى كثير من الشعوب البدائية نفسها .

فقد لاحظها الرحالة وعلماء الإتنوجرافيا لدى السكان الأصليين لأمريكا ، وذكروا أنه يوجد فى كثير من هذه القبائل غلمان مخنثون يلبسون زى النساء ، ويقومون بوظائفهن ، ويعيشون أحيانا مع الرجال فى صورة منظمة دائمة كما يعيش الزوجات والخليلات مع بعولتهن وأخدانهن . ولاحظوا كذلك أن هذا المسلك لا تقره العادات السائدة فحسب ، بل يساير كذلك النظم المقررة ولا ينبو عن العرف الخلقى . — وقد جرت العادة عند السكان الأصليين لمنطقة كادياك Kadiak (على سواحل بحر بهرنج) عندما يجد الأب أن أحد أبنائه يبدو عليه مظاهر أو اتجاهات نسوية أن ينشئه كما تنشأ البنات ، فيلبس لبسهن ، ويقوم بأعمالهن المنزلية ، ولا يسمح له بأن يزاول عملا من أعمال الرجال ، ولا أن يصاحب فى طفولته إلا الفتيات والنساء . وفى سن العاشرة إلى الخامسة عشرة يزوجه أبوه برجل من الأثرياء . وكان كل من يحصل على واحد من هؤلاء الغلمان يعد نفسه ويعده النــــاس ذا حظ عظيم . وكان هؤلاء الغلمان أنفسهم موضع تقدير الشعب ، حتى إن الناس كانوا يعتبرونهم من طوائف السحرة والكهان . — وفى بعض عشائر الإسكيمو الشرقية وبعض عشائر السكان الأصليين للبرازيل ينتشر الشذوذ الجنسى بين النساء . فيوجد نسوة مسترجلات ،

---

(١) Ploybe, Histoire, XXXII. XI, 5. cité par Westermarck op. cit. II, 446

لا يزاولن أي عمل من أعمال النساء ، ويتشبهن بالرجال في كل شيء ، فيلبسن لبسهم ، ويحلقن رءوسهن كما يحلقون ، ويذهبن للصيد وساحات القتال مزودات بالنبال والسهام كما يفعلون . وتفضل الواحدة منهن أن تموت على أن تكون لها صلة جنسية مع رجل ما . وتحرص كل واحدة منهن على أن يكون لها زوجة من الأناث تعيش معها عيشة دائمة منظمة كما يعيش الزوج مع زوجه . ولا تجد أعمالهن هذه أية مقاومة من نظم الشعب ولا من تقاليده ولا من عرفه الخلقي . — ولاحظ لاس كازاس Las Casas أن الشذوذ الجنسي بين الرجال منتشر لدى السكان الأصليين للمكسيك في كثير من أريافه ، وأن الجمهور ينظر إليه هناك على أنه أمر مباح . ويظن هذا الباحث أن هذه التقاليد كانت سائدة في جميع بلاد المكسيك في أقدم العهود ، وأن محاربة هذه الأعمال قد حدثت فيما بعد .

وعند السكان الأصليين لبعض جزر الملايو وأندونسيا يبدو الشذوذ الجنسي كذلك في صورة يقرها العرف العام والعادات والتقاليد . فلدى عشائر الباتاك Batak بسومطرة كان الشذوذ الجنسي لا يعتبر جرما ولا يعاقب مرتكبوه . — وفي جزيرة بالي Bali (من جزائر أندونسيا يفصلها عن جاوة بوغاز بالي) كان يمارس هذا الشذوذ في نطاق واسع بين الرجال بعضهم مع بعض وبين النساء بعضهن مع بعض ، بدون أن يكون في ذلك ما يتنافر مع القانون ولا مع الأخلاق ؛ بل لقد كان يسمح هناك باتخاذ الشذوذ الجنسي السلبي مهنة للحصول على الرزق وإشباع الشهوات . — وفي عشائر الدياك Dayaks يوجد صنف من الرجال يسمون البازير Basir يتزيون بزى النساء ، ويتصل بهم الرجال في الأعياد وغيرها ، بل يتزوج معظمهم بالرجال بالطقوس نفسها التي يتم بها الزواج العادي .

وفي عشائر الشنجالي Chingalis التي تسكن المنطقة الجنوبية من أستراليا الوسطى ، يظل عدد كبير من شيوخ القوم عزابا ، ولكن يتخذ كل منهم لنفسه خدنا أو خدنين من صغار الغلمان . ولاحظ الرحالة أنهم يساكنون هؤلاء الغلمان ويغارون عليهم ويعاشرونهم معاشرة الزوجات من جميع الوجوه . — وفي

جزر تاهيتى أو جزر الشركة ببولينزيا Tahiti, ou Tati ou archipel de la Société يجد الشذوذ الجنسى تشجيعا من رجال الدين أنفسهم ، وتروى أساطيرهم أن الآلهة أنفسهم يمارسونه فيما بينهم .

وفى مدغشقر كان يوجد صنف من الغلمان المخنثين يعيشون عيشة النساء ويتصلون بالرجال . وقد كتب عن هؤلاء باحث قديم من رجال القرن السابع عشر هو دوفلاكور de Flacours فى كتابه عن « تاريخ الجزيرة الكبرى مدغشقر » يقول : « يوجد صنف من المخنثين فاقدى الرجولة يسمون تسيكات Tsekats يكرهون النساء ويفارون منهم ، ولكنهم يتشبهون بهن فى زيهن وحركاتهن ، بل يسمون أنفسهم أحيانا بأسماء الإناث . ولاينفكون يبحثون عن الشبان ويغرونهم بالهدايا ليتصلوا بهم . ومن الغريب أن العقيدة السائدة لديهم ولدى طوائف الشعب أنهم بذلك يرضون آلهتهم[١] » .

— ٣ —

الانحراف الجنسى حيث تحتمله عادات الشعب وإن حاربته القوانين ونظم الأخلاق

يبدو الشذوذ الجنسى على هذا الوضع لدى عدد غير يسير من الشعوب الإنسانية البدائية وغيرها فى شتى أنحاء العالم وفى مختلف مراحل التاريخ .

فقد انتشر الشذوذ الجنسى فى بلاد الصين فى العصور الحديثة نفسها انتشاراً كبيراً حتى أصبح الناس يغضون النظر عنه ، وأصبح محتملا من العادات الشعبية السائدة ، وحتى لقد أنشىء فى كثير من المدن الصينية بيوت للبغاء ترتكب فيها

---

(١) de Flacours : Histoire de la Grande Isle Madagascar, p. 86; cité par Westemarck, op. cit. II, 445.

الفاحشة مع المخنثين من الغلمان . وكثير من الآباء المعوزين فى الصين كانوا يبيعون أبناءهم فى سن العاشرة بيع الرقيق لنخاسين يتجرون بأعراضهم فى أعمال الشذوذ الجنسى . ولكن القانون الصينى يعد هذا الفعل جريمة ويوقع عليه عقوبات قاسية . فإذا كان الطرف السالب فى الجريمة بالغا أو جاوز الثانية عشرة وحدث ذلك برضاه فإنه يجلد مائة جلدة ويعاقب مدة شهر كامل بعقاب « الكنج Cang » (ويتمثل عقاب الكنج فى أن يؤتى ببرميل أو ما شاكله ويثقب فى قاعه ثقب تمر منه رأس المجرم ورقبته ، ويظل حاملا هذا الثقل فى هذا الوضع على كتفيه طول المدة المحددة لعقابه) . وإذا كان الفعل حدث على الرغم منه وبوسائل العنف والإكراه وهو فى هذه السن فجريمة الطرف الموجب جريمة اعتداء على العرض توقع عليها العقوبات القاسية التى توقع على هذا النوع من الجرائم . وإذا لم يكن الطرف السالب بالغا وكان دون الثانية عشرة اختلفت كذلك عقوبته وعقوبة الطرف الآخر تبعا لمبلغ رضاه بالفعل أو مقاومته له وتبعا لسوابقه فى هذه الفاحشة . — غير أن الشعب لا ينظر إلى هذه الأمور على أنها جرم كبير ولا يوجه إلى مرتكبيها أى ازدراء أو احتقار . بل إنه لينظر إليها أحيانا على أنها من أعمال العظمة الأريستقراطية ؛ حتى لقد كان ثمة غلمان من هذا الصنف فى بلاط الإمبراطور نفسه ومن بين حاشيته . وكل ما هنالك أنه كان يعتقد أن هذه الأعمال قد تسبب بعض أمراض العيون(١) .

وتاريخ الشذوذ الجنسى فى اليابان يرجع إلى عصور سحيقة فى نظر بعض الباحثين ، بينما يرى آخرون أنه لم ينتشر فى هذه البلاد إلا بعد دخول البوذية فيها فى القرن السادس عشر الميلادى . ومهما يكن من شىء بشأن نشأته الأولى فى اليابان فإنه مما لا شك فيه أنه قد انتشر فى هذه البلاد انتشاراً كبيراً ، وأخذ الشعب ينظر إليه على أنه أمر عادى . بل إن كثيراً من القساوسة البوذيين كانوا — ولا يزالون — يعيشون فى اليابان مع أخدان لهم من الغلمان يتفانون

---

(١) Cité par Westermarck, op. cit. p. 460 d'après Matignon

فى حبهم والحدب عليهم . وحتى منتصف القرن التاسع عشر كان فى اليابان بيوت خاصة لهذا النوع من الشذوذ . وفى عصر الفروسية اليابانية كان أدعى للفخر والعظمة للرجل أن يكون عشيقه غلاما من أن تكون عشيقته امرأة . ولا يزال كثير من اليابانيين فى الوقت الحاضر يعتقدون أن هذه الأعمال تكسب الرجال قوة وعافية ، وأن المناطق التى تنتشر فيها أعمال الشذوذ الجنسى يمتاز رجالها عن رجال المناطق التى لا تنتشر فيها هذه الأعمال ببسطة الجسوم وقوتها وجمالها . بل إن القانون اليابانى نفسه لم يعرض لهذه الأعمال ولم يضع لها عقوبات إلا بعد ثورة اليابان سنة ١٨٦٨ . ومع ذلك فإنها لا تزال فى الوقت الحاضر منتشرة فى معظم بلاد اليابان ، وإن كان انتشارها فى جنوبيه أكثر من انتشارها فى شماليه . غير أنه توجد مناطق فى اليابان تكاد تكون خالية منها .

وكانت العادة جارية فى بعض مناطق ألبانيا ، عندما يتجاوز الغلام السادسة عشرة من عمره ، أن يخادن غلاما جميلا تتردد سنه بين الثانية عشرة والسادسة عشرة ، وكانت العلاقات بينهما لا تخلو من هذا الشذوذ .

ويظهر من كثير من الشواهد التاريخية أن الشذوذ الجنسى كان منتشراً انتشاراً كبيراً فى جزر اسكنديناوة (السويد والنرويج) منذ أقدم العصور . ولا أدل على ذلك من اشتمال اللغات الإسكنديناوية القديمة على مجموعة كبيرة من الألفاظ الخاصة المعبرة عن عمليات هذا الشذوذ وأوضاعه . ويبدو أنه فى عصورهم القديمة ما كان ينظر بعين الازدراء إلا للطرف السالب فى هذا الشذوذ ؛ أما الطرف الآخر فلم يكن عمله جريمة فى نظر الناس بل كان موضع فخر واعتزاز ، بدليل أنه فى بعض ملاحمهم القديمة يفتخر بطل القصة بأنه قد أنجب أولاداً من غلام جميل اتصل به ! ويظهر كذلك أن هذا الشذوذ لم ينتشر فى أى بلد أوروبى فى الوقت الحاضر مقدار انتشاره فى السويد والنرويج حتى كاد الناس هناك لا يرون فيه خروجا كبيراً على مبادئ الأخلاق .

ويروى كثير ممن أقاموا بواحة سيوة المصرية أن كثيراً من الرجال هناك

يتخذون من الغلمان أخدانا لهم ويستخدمونهم فيما يستخدم فيه النساء ، وأن ذلك يتم أحيانا فى صورة زواج متفق عليه ، على الرغم من أن القانون والعرف الخلقى يحرمان هذه الأعمال .

وعند السكان الأصليين لجمهورية بيرو بأمريكا الجنوبية يوجد فى بعض المعابد غلمان مخنثون ينظر إليهم على أنهم قسيسون ورهبان ، ويشاع أن الآلهة أنفسهم يتصلون بهم فى بعض أيام الأعياد ، وتنزل أعمالهم هذه منزلة تضحية وقربان يقدمونها للآلهة . غير أن حكام بيرو وأمراءها الذين كانوا يسمون الإنكا Incas كانوا يتجاهلون هذه الأمور ، وكانوا يوقعون على من تثبت عليه جريمة من هذا القبيل عقوبات شديدة ويحرصون على أن يشهد عذابه طائفة كبيرة من أفراد الشعب ليكون عبرة للجميع .

ومع أن الشذوذ الجنسى كان منتشرا انتشارا كبيرا لدى السكان الأصليين للمكسيك ، ومع أنه فى الأرياف المتطرفة كان الجمهور يكاد ينظر إليه على أنه أمر مباح ، ومع أنه يظن أن هذه التقاليد كانت سائدة فى المكسيك فى أقدم عهوده كما سبقت الإشارة إلى هذا كله(١) ، فإنه من المحقق أن شرائع هذا الشعب وعرفه الخلقى فى العهود اللاحقة قد اعتبرته من كبريات الجرائم ، حتى لقد كان يوقع على مرتكبيه عقوبة الإعدام . ولكنه كان على كل حال أمر تحتمله العادات السائدة فى البلاد .

وفى منطقة كمبرلى Kimberly فى غرب استراليا (وهى غير مدينة كمبرلى فى اتحاد جنوب أفريقيا) لا يقر العرف الخلقى للسكان الأصليين أعمال الشذوذ الجنسى ، ويتظاهر الناس هناك بالاشمئزاز منها ، وينظرون إليها نظرتهم إلى فاحشة محرمة . ومع ذلك فإن العادة قد جرت عندهم ، حينما لا يجد الشاب فتاة يتزوجها ، أن يتزوج غلاما صغيرا بين الخامسة والعاشرة من عمره . ويطلقون

---

(١) انظر السطور ٧ — ١٠ من ص ٢٣ .

على هذا الصنف من الغلمان اسم « الشوكادو » Choukadou أو الملاونجا Mullawonga . ويراعى فى هذا الزواج جميع الطقوس التى تراعى فى الزواج بالإناث ، وتترتب عليه جميع نتائجه ، حتى إنه ليحرم على الزوج أن يتزوج أو يقرب أم « الشوكادو » الذى تزوج به ، كما يحرم عليه ذلك حينما تكون الزوجة أنثى . — ولما كان الرؤساء وكبار القوم فى هذه العشائر يستأثرون بالنساء فإن كثيراً من الشبان قد يصل الواحد منهم إلى الثلاثين أو الأربعين من عمره بدون أن يتيسر له الحصول على زوجة من النساء . ومن ثم نشأت هذه العادة ، واتجه كثير من الشبان إلى الزواج بصغار الغلمان . ومع أنهم يسمون الزوج « حاميا » (بيلالو Bilalou) للغلام ، ويتحاشون أن يصرحوا بحقيقة ما يحدث بينهما من علاقات ، فإنه مما لا شك فيه أنه يحدث بينهما ما يحدث بين الزوج وزوجه .

— ٤ —

الانحراف الجنسى حيث لا تقره العادات السائدة ولا القوانين ولا العرف الخلقى

يبدو الشذوذ الجنسى على هذا الوضع كما قلنا عند معظم الشعوب الإنسانية بدائيها ومتحضرها فى مختلف مراحل التاريخ .

فمع أن هذا الشذوذ منتشر عند الإيرانيين انتشاراً كبيراً منذ أقدم عهودهم فى صورة عادة أصيلة لهذا الشعب على ما يرجحه بعض الباحثين ، أو فى صورة عادة دخيلة انتقلت إليهم من اليونانيين على ما يرجحه هيرودوت ، فإن قوانينهم وعاداتهم ونظمهم الخلقية لم تفتر عن محاربته فى مختلف عصورهم ، حتى قبل اعتناقهم للإسلام . فالديانة الزرادشتية التى كانت سائدة لديهم قبل الإسلام تقسو كل القسوة

فى عقاب هذا الشذوذ كما تدل على ذلك أسفارها المقدسة . ففى كتاب « القانديداد Vendidâd (وهو قسم من سفر الأبستاق أو الأفستا Avesta ، وهو أهم أسفار زرادشت) أن هذا الجرم لا كفارة له ولا تقبل من صاحبه توبة ، وأن مرتكبه يعاقب فى الدنيا بالإعدام ، ويدخر له فى الآخرة عذاب دائم أليم . وحتى إذا كان هذا الفعل قد ارتكب مع آخر بطريق الإكراه فإن هذه الأسفار لا تعفى المجنى عليه من الجزاء ، وتوجب أن توقع عليه عقوبة بدنية . وتعتبر هذه الأسفار هذا الشذوذ أشد تعديا على حدود الله من قتل رجل عادل مستقيم ، كما توجب على كل شخص يصادف رجلين يرتكبان هذا الجرم وهو مسلح أن يقطع رأسيهما ويفقأ بطنيهما ويخرج أمعاءهما . — وغنى عن البيان أن تشديد العقوبة لجريمة معينة بالذات فى شعب ما دليل على انتشار هذه الجريمة بين أفراده وعجز المشرع عن القضاء عليها .

وهو كذلك منتشر انتشاراً كبيراً عند اليهود منذ أقدم عصورهم . ولكن شريعتهم تنظر إليه نظرتها إلى كبريات الجرائم ، وتسوى بينه وبين قتل النفس فى الجزاء . فبحسب هذه الشريعة يحكم بالإعدام على مرتكب هذا الجرم سواء أكان إسرائيليا أم أجنبيا مقيما فى بلد إسرائيلى . وتقرر أسفار التوراة أن شيوع هذه الفاحشة عند الكنعانيين هو الذى دنس بلادهم وأنزل عليها سخط الإله ونقمته ، فدمرها تدميرا وجعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود(١) .

ومع انتشاره فى الأمم الأوروبية المسيحية ، فإن دياناتهم تعتبره من كبريات الجرائم . فالرسول بولس يرى أنه أقصى ما يمكن أن يصل إليه الانحلال الخلقى والخروج على تعاليم الدين . والقديس بازيل Basile يرى أن يعاقب مرتكب هذا الجرم بمثل ما يعاقب به القاتل والساحر وعابد الأوثان ، أى بأقسى عقوبات الإعدام . وقد أصدر مجمع إليفرا Concile d'Elivra ، قانونا يقضى

---

(١) انظر سفر اللاويين إصحاح ١٨ فقرات ٢٢ ، ٢٤ ؛ وإصحاح ٢٠ فقرة ١٣ .

بأن الذين يعتدون على الغلمان إشباعا لرغباتهم الجنسية المنحرفة لا تقبل منهم توبة ولا يجوز للقسس أن يحضروا ساعات احتضارهم . وعندما تأصلت المسيحية ورسخ قدمها فى الإمبراطورية الرومانية أخذت الشرائع ونظم الأخلاق تشن حربا شعواء على هذا الشذوذ ، بعد أن كان يعد من قبل من الهنات الهينات ، بل من الأمور المباحة ، كما ذكرنا ذلك فيما سبق(١) . فالإمبراطوران كنستانس وكنستانت Constance et Constant جعلا عقوبته الإعدام ضربا بالسيف . وفالنتينيان Valentinjen ذهب إلى أبعد من ذلك فقرر أن يحرق المجرمان حرقا وأن يشهد عذابهما الجمهور ليكونا عبرة للناس . وقد اعتقد جوستينيان Justinjen أن ما أصاب البلاد فى عهده من مجاعة وأوبئة وزلازل قد أصابها بسبب شيوع هذه الفاحشة بين أهلها ، فأصدر منشورا بإعادة العمل بالقانون الذى يقضى بأن يقتل مرتكب هذا الجرم ضربا بالسيف . وعلق المنشور على ذلك بأن هذا إجراء وقائى حتى لا تدمر المدن على أهلها ، لأن الأسفار المقدسة تنبئنا بأن الله قد عاقب بذلك أهل مدينة سودوم (أهل لوط) . وقد أصبحت جريمة الشذوذ الجنسى فى ذلك العصر أفظع جريمة يمكن أن يتهم بها الفرد ، وأخذت المحاكم تصدر العقوبات القاسية على المتهمين بها لأقل شبهة وأضعف دليل ، حتى لقد كانت شهادة طفل أو خادم كافية فى توقيع عقوبة الموت على المشهود ضده ، وحتى لقد أصبح هذا الاتهام أيسر وسيلة يلجأ إليها الناس من أفراد الشعب ومن الحكام للإيقاع بخصومهم حينما لا يجدون سبيلا لاتهامهم بشىء آخر يمكن إثباته .

وقد تأثرت القوانين الأوروبية فى العصور الوسطى بهذه الشرائع الرومانية . ففى إنجلترا كانت العقوبة المقررة لهذا الجرم أن يدفن المجرم حيا أو يحرق ، وإن كان الراجح أن العقوبات التى كانت تطبق بالفعل كانت أخف من العقوبات المقررة . وفى فرنسا كان يحكم عليه بالحرق ، وظلت هذه العقوبة تطبق وتنفذ حتى

---

(١) انظر الفقرة الأخيرة من ص ٢١ وتوابعها .

منتصف القرن الثامن عشر . — ثم أخذ المشرعون فى مختلف البلاد الأوروبية يخففون من غلوائهم فى هذا الصدد حتى انتهى الأمر بالقانون الجنائى الفرنسى الحديث إلى إعفاء مرتكبى هذا الجرم من كل عقوبة ما دام الطرف السالب بالغاً رشيداً ووقع الفعل برضاه وفى صورة لا تسىء إلى الآداب العامة . وقد انتقلت هذه النظرة إلى معظم الشرائع الأوروبية الحديثة وإلى الشرائع غير الأوروبية المقتبسة من القانون الفرنسى . ولكن عدم توقيع العقوبة على هذا الفعل لا ينفى أنه فى معظم بلاد أوروبا لا يزال معتبرا فى عداد الجرائم والمنكرات من النواحى القانونية والخلقية ومن ناحية العادات نفسها ، وإن كان الناس قد أخذوا ينظرون إليه فى هذه البلاد نظرة أخف كثيراً من النظرة التى كان ينظر بها إليه أجدادهم فى العصور الوسطى وصدر العصور الحديثة . — وقد نشرت الصحف أخيرا(١) أن وكيل وزارة الخارجية البريطانية مستر دوجلاس هارفى قد اعتقله البوليس بينما كان يرتكب عملا فاضحا فى متنزه سان چيمس مع أحد جنود الحرس الملكى المكلفين بحراسة قصر بكنجهام ، ويدعى هذا الجندى ولتر بلانت وسنه تسع عشرة سنة . وقد قدم البوليس إلى محكمة الآداب وكيل الخارجية والجندى الذى مثل أمام المحكمة بملابسه الرسمية وهى ملابس الحرس الملكى ؛ فأفرج القاضى عنهما بكفالة ٢٥ جنيها ، ولم تستغرق قضيتهما أكثر من دقيقتين . وقد علقت الجرائد الإنجليزية على ذلك بأن الجرائم الأخلاقية التى ترتكب بين الذكور فى بريطانيا مشكلة إجتماعية خطيرة ، وأنه قد ألفت لبحثها لجنة اسمها لجنة ولفندن نسبة إلى رئيسها چون ولفندن ، وأن اللجنة قد وضعت تقريرا قالت فيه إن الجرائم الجنسية بين الذكور لا تعد جريمة جنائية مادامت برضا الطرفين . ومع بشاعة الفعل الذى ارتكبه وكيل الخارجية الانجليزى مع هذا الجندى ومع أنه قد قبض عليهما وهما متلبسان بالجرم على قارعة الطريق فى متنزه عام ، فإن الحكم الذى انتهت المحكمة بإصداره فى هذه القضية ينطوى على عقوبة تافهة وهى غرامة خمسة جنيهات

---

(١) انظر جريدتى الأهرام والأخبار الصادرتين فى ٢١/١١/٥٨ وفى ١١/١٢/٥٨ .

على كل منهما عدا أربعة جنيهات وأربعة شلنات رسوم القضية ، ويلاحظ إن الغرامة لم توقع للفعل نفسه وإنما وقعت لارتكابه فى متنزه عام وفى أوضاع مخلة بالآداب . ولذلك كانت مرافعة المدعى العام تدور كلها حول إثبات « أن البوليس شاهد الرجلين فى وضع مخل بالآداب فى إحدى حدائق لندن فى الشهر الماضى ... أما محامى هارفى فلم تبد منه أية محاولة للإنكار أو التستر على موكله أو حتى تلمس الأعذار . وإنما اكتفى بأن يقول : « إنه لن يحاول أن يغير من الحقائق فهى تتحدث عن نفسها بنفسها » . — ولا يخفى ما ينطوى عليه هذا الحادث وملابساته ، ومسلك المحكمة والمدعى العام ومحامى الدفاع حياله ، وموقف الفتور وعدم الاهتمام الذى قابله به الرأى العام ، وتعقيب الصحف عليه ، لا يخفى ما تنطوى عليه هذه الأمور من دلالة على أن القوم هناك ينظرون إلى هذه الأمور نظرتهم إلى الهنات الهينات .

وقد سرت هذه النظرة إلى رجال الدين أنفسهم . فقد نشرت جريدة « الجمهورية الصادرة فى ١٦ نوفبر سنة ١٩٥٧ تحت عنوان « الشذوذ الجنسى عمل مشروع يوافق عليه مجلس الكنائس الإنجليزية » مايلى : « وافق مجلس الكنائس الإنجليزية بعد مناقشات حامية على التوصية التى كانت تقدمت بها إحدى اللجان الحكومية باعتبار الشذوذ الجنسى الذى يحدث بين البالغين وبرضاهم عملا مشروعا لا يعاقب عليه القانون . وكان كبير أساقفة كنتربرى وهو جوفرى فيشر هو الذى قاد الحملة لتأييد هذه التوصية التى تمت الموافقة عليها فى مجلس الكنائس بأغلبية ١٥٥ صوتا ضد ١٣٨ . وقال كبير الأساقفة إنه كان يشعر بالقلق لما يصيب الشخص المصاب بالشذوذ الجنسى من ظلم القانون ، فى حين يستطيع أى شخص آخر أن يدمر أسرة ويشردها بدون أى عقاب » .

ويظهر أن اللواط والمساحقة (وهو اسم يطلقه فقهاء المسلمين على اتصال المرأة بالمرأة اتصالا جنسيا) كانا منتشرين انتشاراً كبيراً عند العرب فى عصور حضارتهم بعد الإسلام ؛ حتى إن الغزل بالمذكر يؤلف بابا هاما من أبواب الأدب فى العصر العباسى ، وحتى إن فقهاء المسلمين قد قرروا عقوبات شديدة

للواط والمساحقة ، فقرروا فى اللواط عقوبة الحرق بالنار أو هدم الجدار على المجرم وتركه تحت الأنقاض حتى يموت ، أو القذف به من مكان مرتفع ، أو الرجم ، أو الجلد مائة جلدة ، حسب اختلافهم فى ذلك ، وحسب الحالة المدنية التى يكون عليها مرتكب الجرم(١) . وذهب بعض المفسرين إلى أن « الفاحشة » التى يشير إليها القرآن الكريم إذ يقول : « واللذان يأتيانها (أى الفاحشة المذكورة فى الآية قبلها) منكم فآذوهما ، فإن تابا وأصلحا فاعرضوا عنهما » مقصود بها اللواط(٢) . وقرر فقهاء المسلمين فى المساحقة عقوبات شديدة حتى لقد ذهب الشيعة الإمامية إلى أن حد المساحقة كحد الزنا أى الرجم إن كانت المرأة محصنة والجلد مائة جلدة إن كانت غير محصنة(٣) . وذهب بعض المفسرين إلى أن الفاحشة التى يشير إليها القرآن الكريم إذ يقول « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » مقصود بها المساحقة(٤) . وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « لعن النبى صلى الله عليه وسلم المخنثين من الرجال والمترجلات من

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتب الفقه . وقد ذهب أبو حنيفة إلى أنه لا حد فى اللواط ، وإنما يعزر مرتكبه أى توقع عليه عقوبة أخف من عقوبة الزنا (وعقوبة الزنا هى الرجم إن كان الجانى محصنا والجلد مائة جلدة إن كان غير محصن) . وقال أبو يوسف ومحمد هو كالزنا ويوقع فيه حد الزنا سواء بسواء (انظر الميدانى على القدورى ص ٢٩٨) .

(٢) آية ١٦ من سورة النساء . وقد قيل فى تفسير هذه الآية أقوال أخرى منها أن المقصود بكلمة الفاحشة الزنا ، وإن عقوبة الإيذاء التى تنص عليها هذه الآية كانت عقوبة الزنا فى الإسلام ثم نسخت بعقوبة الحبس فى البيوت التى ذكرت فى الآية السابقة لهذه تلاوة وإن كانت لاحقة لها نزولا بحسب هذا الرأى ، ثم نسخت عقوبة الحبس بعقوبتى الجلد والرجم (انظر تفسير البيضاوى) .

(٣) انظر « المختصر النافع » لأبى القاسم الحلى فى فقه الإمامية ، طبعة وزارة الأوقاف صفحتى ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٤) آية ١٥ من سورة النساء . وقيل فى تفسير هذه الآية أقوال أخرى: منها أن المقصود بالفاحشة الزنا ، وأن المعنى أن الزانية بعد أن يوقع عليها حد الزنا توقع عليها عقوبة أخرى إضافية بأن تمنع من الخروج من البيت حتى يتوفاها الموت ؛ ومنها أن عقوبة الحبس فى البيت كانت عقوبة الزنا فى أول الإسلام ثم نسخت بعقوبتى الجلد والرجم (انظر تفسير البيضاوى) .

النساء وقال أخرجوهم من بيوتكم ، وأخرج فلانا ، وأخرج عمر فلانا »(١) .

ومع انتشار هذا الشذوذ بنوعيه (اللواط والمساحقة) فى بلاد الهند ، فإن قوانين البلاد وعرفها الخلقى وتقاليدها تعتبره جريمة . غير أنه يظهر أن قوانينها القديمة لا تعتبره من كبريات الجرائم ، بدليل أن قوانين مانو (مشرع الديانة البرهمية) تدخله فى مادة واحدة مع جرائم أخرى صغيرة كاتصال الرجل بالمرأة فى حظيرة من حظائر الثيران أو فى الماء وهما يستحمان(٢) .

وهو كذلك شائع لدى كثير من الشعوب المتحضرة فى آسيا الصغرى وتركيا وشمال أفريقيا ووادى النيل وجميع البلاد العربية بآسيا والقوقاز والأفغان ومصر ، وإن كانت شرائع هذه البلاد جميعا وتقاليدها ونظمها الخلقية تنفر من ذلك كل النفور وتنظر إليه على أنه جرم كبير . وأيام أن كان البغاء الرسمى نظاما معمولا به فى مصر كان يوجد بجانب البغايا من النساء طائفة من المخنثين من الرجال والغلمان يزاولون هذه المهنة . وكانوا يتشبهون بالنساء فى زيهن وحليهن وزينتهن ومشيتهن واستخدامهن للكحل والمساحيق والألوان ، وكثيراً ما كانوا يشاهدون على هذه الصورة رائحين غادين فى أكبر شوارع القاهرة . ولا تزال الإحصائيات القضائية فى مصر تسجل عدداً غير يسير من جنايات الفسق بالغلمان ومن حوادث العصابات التى تتجر بأعراض الأحداث . — ومع ذلك فإن شرائع بلادنا وتقاليدها وعرفها الخلقى تنفر من هذه الفاحشة كل النفور ، وتعد مرتكبيها من أحط طبقات الفسقة المجرمين .

وما لوحظ فى هذا الصدد عند الأمم المتحضرة التى ضربنا أمثلة لها لوحظ مثله عند كثير من الشعوب البدائية .

فقد لاحظ الرحالة انتشار هذه العلاقات بين الرجال والغلمان انتشاراً كبيراً لدى العشائر التى تسكن الجنوب الشرقى لأستراليا ؛ ومع ذلك فإن قوانين هذه العشائر وتقاليدها ونظمها الخلقية تحرم هذه الأمور تحريما باتا . ولا أدل على

---

(١) صحيح البخارى ، الجزء الرابع ، ص ١١٢ (طبعة عبدالرحمن محمد ، سنة ١٣٤٣هـ — باب المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء) .

(٢) Lois de Manou XI, 175.

ذلك من أن شيوخ هذه القبائل ينصحون الشبان عقب تعميدهم Initiation بألا يأتوا عملا من أعمال الشذوذ الجنسى .

وفى جزائر الأليوت Aléoutes (مجموعة جزر فى الشمال الغربى من أمريكا الشمالية تابعة للولايات المتحدة) يعد السكان الأصليون أعمال الشذوذ الجنسى من كبريات الجرائم . وتوجب التقاليد على مرتكب هذا الجرم أن يكفر عن جرمه ويتطهر منه ، وذلك بأن يختار يوما تكون فيه السماء صافية خالية من الغيوم ، ويحمل ضغثا من الأعشاب ، ويعتبر أن هذه الأعشاب قد احتملت خطيئته ، ويشهد الشمس على ذلك ، ثم يشعل النار فى هذا الضغث ؛ ويعتقد أنه باحتراقه قد محيت خطيئته وغفر له ما ارتكبه من إثم .

وعند السكان الأصليين لنيكاراجوا كانت توقع عقوبة الرجم على مرتكب هذه الفاحشة ؛ ولدى عشائر الشيبشاس Chibchas بمنطقة بوجوتا Bogota (عاصمة كولومبيا) كان يعاقب مرتكبها بالموت البطىء ؛ وذلك على الرغم من انتشارها من الناحية الواقعية انتشارا كبيراً عند هؤلاء وأولئك .

وينتشر كذلك الشذوذ الجنسى إنتشاراً كبيراً فى جزيرتى أنكيزيمان Ankisimane ونوسى - بى Nossi - Bé (جزيرة فى المحيط الهندى فى الشمال الغربى من مدغشقر عاصمتها هلفيل Hellville) . ولكن الشعب يحتقر مرتكبيه ، وينظر إليه على أنه فاحشة لا يقرها القانون ولا العرف الخلقى .

ولاحظ الرحالة رجالا مخنثين يتشبهون بالنساء فى عشائر الأندونجا Andonga (بأفريقيا الجنوبية الغربية الألمانية) وعشائر الديا كيتى سراكولى - Diakité Sarrakolais (بالسودان الفرنسى) ؛ كما لاحظوا أن الشذوذ الجنسى بين الرجال بعضهم مع بعض شائع فى عشائر البانا كا Banaka والباپوكو Bapuku بالكمرون وفى بلاد الزنجبار وغيرها من بلاد شرقى أفريقيا ؛ ولاحظوا فى الزنجبار نفسها وجود نسوة مسترجلات يتشبهن بالرجال فى كل شىء ويزاولن أعمالهم ، ويشبعن رغباتهن الجنسية المنحرفة مع نساء منحرفات انحرافا سلبيا ؛ فإن لم يجدن هذا

الصنف من النساء عملن على التغرير بنساء عاديات واستمالتهن بالهدايا وبوسائل أخرى كثيرة ؛ وهذا على الرغم من أن شرائع هذه الشعوب جميعا ونظمها الخلقية تحرم ذلك تحريما باتا .

وفى بلاد النوبة ولدى عشائر الكافر والأندونجا والواشنبالا والواجندا والأكريين Caferes, Andonga, Washambala, Waganda, les Nègres d'Accra ينظر إلى أعمال الشذوذ الجنسى نظرة اشمئزاز وازدراء وتوقع عقوبات على مرتكبيه على الرغم من انتشاره لديهم انتشارا كبيرا .

— ٥ —

عوامل الانحراف الجنسى

قد يكون سبب هذا الشذوذ راجعا إلى انحراف فطرى فى الغريزة الجنسية للفرد ، وقد يكون راجعا إلى عوامل خارجية محيطة ببعض أفراد من الشعب أو بالشعب فى مجموعه .

أما فيما يتعلق بالسبب الأول فإن الغريزة الجنسية قد تنحرف عند بعض الأفراد تحت تأثير تكوين فطرى ، فيتجهون إلى التعلق بأفراد جنسهم نفسه ، أى يتجه الذكور إلى الذكور والإناث إلى الإناث . فكثير من المخنثين من الرجال والمسترجلات من النساء الذين لوحظ وجودهم فى كثير من الشعوب والذين قد ضربنا لهم عدة أمثلة فى الفقرات السابقة ، يرجع السبب فى حالتهم هذه وفى حالة الأطراف المقابلة لهم فى الاتجاه ، إلى وجود هذا الانحراف الفطرى فى غرائزهم الجنسية . .وقد لاحظ هولدر Holder هذا العامل فى كثير من المنحرفين فى قبائل السكان الأصليين بالقسم الغربى بالولايات المتحدة . ولاحظ مثل ذلك الدكتور بومون Baumaun عند أهل زنجبار(١)

وقد يكون هذا الانحراف مكتسبا لا فطريا . ولكن الانحراف المكتسب

(١) V. Westermarck, op. cit. II, 440 .

يتوقف هو نفسه على استعداد فطرى خاص . وقد قرر وليم جمس أن هذا الانحراف ليس إلا مظهراً من مظاهر الشهوة الجنسية ، وأن هذا المظهر ، على ما يبدو ، يوجد الاستعداد له عند معظم الرجال . فإذا أتيحت له بعض الظروف المواتية نما وترعرع وأصبح شأنه شأن الانحراف الفطرى . ويذهب دوسوار Dessoir إلى ما ذهب إليه وليم جمس ، ويضيف إليه أن هذا المظهر يبدو الاستعداد له واضحا عند كثير من الرجال فى مرحلة البلوغ على الأخص .

ويلاحظ أن الغريزة الجنسية حينما تنحرف هـذا الانحراف تتجه فى الغالب إلى ما يشبه موضوعها الأصلى . فالطرف السالب فى الشذوذ الجنسى بين الذكور هو فى الغالب غلام أمرد لم يبلغ بعد دور الرجولة ؛ والغلام فى هذه المرحلة قريب الشبه من المرأة فى التكوين الجسمى وتقاطيع الوجه .

وأما فيما يتعلق بالطائفة الثانية من الأسباب وهى العوامل الخارجية فإن أهمها يتمثل فى ندرة الجنس الآخر . ولا تـكاد تتخلف هذه الظاهرة عند وجود هذه الظروف حتى عند الحيوانات نفسها . فقد لاحظ بوفون Buffon أنه إذا حبست مجموعة من ذكور الطيور بعضها مع بعض أو من إناثها بعضهن مع بعض ، فإنها لا تلبث أن تنشأ بينها علاقات وعمليات جنسية . وتنشأ هذه العلاقات بين الذكور بعد مضى مدة أقصر من المدة التى تنشأ بعدها هذه العلاقات بين الإناث . فـكثير من الشعوب البدائية التى يحدث فيها زواج الذكور بالذكور بالطقوس نفسها التى يحدث بها الزواج العادى ، على النحو الذى ضربنا له عدة أمثلة فيما سبق ، يرجع السبب فى اتباعها هذا النظام الغريب إلى ندرة نسائها واختلال التوازن بين عددهن وعدد الذكور . فانتشار الشذوذ الجنسى فى جزر تاهيتى Tahiti (أو جزر الشركة Île de la Société) يرجع سببه إلى أن عدد النساء لا يكاد يبلغ الربع أو الخمس من عدد الذكور . فتوجد لديهم امرأة واحدة لـكل أربعة رجال أو لـكل خمسة رجال . ويرجع السبب فى هذا الاختلال إلى ما درج عليه كثير من الآباء هناك من قتل البنات عقب ولادتهن والإبقاء على الذكور . ولذلك نجد أن بعض

الشعوب لا يلجأ إلى هذا الطريق إلا فى الفترات التى يحدث فيها هذا الاختلال . فنى عشائر البورورو فى البرازيل Bororo du Brésil لا يظهر الشذوذ الجنسى إلا فى الفترات التى تشتد فيها أزمة النساء ويصبح الحصول على امرأة من الأمور المتعذرة أو العسيرة على كثير من الناس .

وقد يتمثل العامل الخارجى فى الفصل الشديد بين الجنسين وعدم إباحة الاختلاط بينهم ، كما هو الشأن فى كثير من البلاد الشرقية .

وقد يتمثل فى النظم التى تحتم العزوبة على بعض الطوائف من الرجال أو تجمع الرجال بعضهم مع بعض وتبعدهم مدة ما عن الجنس الآخر . فالعزوبة المفروضة على بعض رجال الدين فى أوروبا وآسيا وغيرهما والتى سنتكلم عنها فى الباب السادس من هذا الكتاب ، قد ساعدت على إنتشار الشذوذ الجنسى بين هذه الطوائف . وتجمع الشبان المجندين بعضهم مع بعض فى أثناء الخدمة العسكرية ، وتجمع الطلبة فى أثناء الدراسة فى أقسام داخلية ، وبعد هؤلاء وأولئك عن أهليهم وصعوبة اتصالهم بالجنس الآخر ، كل ذلك قد ساعد على انتشار هذا الداء بين جنود الجيش وطوائف الطلبة فى كثير من الشعوب .

وقد يتمثل هذا العامل الخارجى فى وجود فرق كبير فى المستوى العقلى والثقافى بين الرجل والمرأة ، وانحطاط مستوى النساء فى هذا الصدد انحطاطاً كبيراً بالنسبة لمستوى الرجال . فلا يجد الشاب حينئذ فى المرأة شريكا حقيقيا يشبع نهمه الجنسى ، بينما يجد ذلك فى شاب مثله . وعلى هذا العامل يقع قسط من التبعة فى انتشار الشذوذ الجنسى بين الرجال عند قدماء اليونان . فقد كان الفرق عند هؤلاء كبيرا جداً بين الرجال والنساء فى المستوى العقلى ومستوى الثقافة العامة والمعلومات . فبينما اليونانى كان حظه كبيراً جداً من هذه الأمور كانت المرأة فى أحط مستوى عقلى وعلمى وثقافى . فقد كانت تعيش فى قسم من منزل الأسرة ، منعزلة عن العالم ، لا تكاد تختلط إلا بالإماء والجوارى ، وكانت محرومة من جميع وسائل الثقافة ، بل كان محظورا عليها أن تحضر المجتمعات العامة أو تشهد

المسارح التى كانت حينئذ من أهم وسائل الثقافة فى العالم اليونانى . فلا غرابة إذن أن ينظر الشاب اليونانى ـ وخاصة إذا كان ذا حظ عظيم من الثقافة كالشاب الأثينى ـ إلى المرأة نظرته إلى مجرد جسم لا روح فيه ، وألا يجد فى هذا الجسم ما يشبع نهمه الجنسى . فالنهم الجنسى فى الفصيلة الإنسانية لا يتطلع إلى الجسوم وشئون المادة فحسب ، بل يتشوف كذلك إلى أمور أخرى كثيرة تتعلق بالمعانى وتتصل بعالم العقل والروح . ـ وعلى هذا العامل نفسه يقع كذلك قسط كبير من التبعة فى انتشار الشذوذ الجنسى فى الصين . وفى هذا يقول الدكتور ماتينيون Matignon « إن المرأة الصينية جاهلة ضعيفة الثقافة أيا كانت طبقتها ، وسواء أكانت محصنة أم بغيا ؛ بينما الرجل تفتح أمامه سبل كثيرة للثقافة والعلم . وهو فوق ذلك مزود بروح شاعرية خيالية : يعشق الموسيقى ؛ ويطرب للشعر ؛ وتهزه العبارات البليغة . فهو يتجه إلى هذا الانحراف علّه يجد فى قرينه ما يشبع نهمه الجسمى والروحى معاً (١) » .

من اهم مراجع هذا الفصل

زيادة على المدون فى التعليقات

Westermarck : L'Origine et le Developpement des Idées Morales, T. II. (trduction française p.p. 440-473).

(١) Matignon, dans : Archives d'Anthropologie Criminelle XIV, 14.

الفصل الثالث

الانتحار الذى توجبه العادات والتقاليد على طريقة الهارا كيرى وما إليها

(الانحراف فى غريزة حب البقاء)

من أنواع الانتحار نوع غريب لايلجأ إليه الفرد بمحض اختياره بل توجبه عليه أو تحثه عليه فى ظروف خاصة تقاليد شعبه وعاداته . ومع غرابة هذا النوع من الانتحار فإن عدداً غير يسير من الشعوب المتحضرة والبدائية قد أخذت به .

— ١ —

مظاهر هذا النوع من الانتحار فى اليابان

طريقة « الهاراكيرى »

ولعل هذا النوع من الانتحار لم ينتشر فى شعب ما مقدار انتشاره فى اليابان . فطريقة الهارا كيرى Harakiri الشهيرة عندهم ، وهى التى تتمثل فى الانتحار بشق البطن بخنجر أو سيف تحتمها تقاليدهم أو تحث عليها فى حالات كثيرة .

فأحيانا كانت تسمح الحكومة للمحكوم عليه بالإعدام من طبقة المحاربين (طبقة السموراى Samouraï) أن ينتحر على طريقة الهارا كيرى بدلا من أن يشنق أو يضرب بالرصاص . وكان ذلك ينطوى على تكريم المحكوم عليه .

وتقدير ما كان له قبل الجرم من ماض مجيد . وقد ظل هذا النظام معمولا به إلى عهد غير بعيد ثم ألغى بعد ذلك .

وأحيانا يلجأ إليها الفرد باختياره فى الظاهر ، وتحت ضغط العادات والتقاليد فى واقع الأمر . ويحدث هذا فى حالات كثيرة ولمقاصد شتى . منها أن يقصد بالانتحار التعبير عن ولائه وإخلاصه لأحد الرؤساء أو الحكام عقب وفاة هذا الرئيس أو الحاكم ؛ كأن لسان حاله يقول إنه لا يطيب له العيش من بعده . ومنها أن يقصد بذلك الاحتجاج الشديد على خطأ ارتكبه واحد من هؤلاء أو ارتكب ضد واحد منهم . ومنها أن يكون الانتحار وسيلة لاتقاء ما يلحق المنتحر نفسه أو يلحق أهله من خزى إذا وقع أسيرا فى يد الأعداء عقب هزيمة لحقت بجيش بلاده . ومنها أن يكون معبرا عن إبراء ذمة المنتحر وغسل شرفه مما عاق به من أذى حينما يعجز عن الأخذ بثأره من أحد خصومه . وقد يحدث للدلالة على ارتياح المنتحر وأنه قد حقق أكبر أمانيه فى هذه الدنيا وأصبح فى غير حاجة إلى المزيد من الحياة ، وذلك حينما يتاح له أن يقتل من أهانه أو أساء إليه .

وفى جميع هذه الأحوال يعد الانتحار ، فى نظر اليابانيين ، مطهرا للفرد ، ومحققا لما يبغيه منه ، ومعبرا أصدق تعبير عما يريد التعبير عنه ، كما يستأهل صاحبه أن يقام له مأتم فخم ، وتحفظ له أمجد الذكريات . ولسمو هذا النوع من الانتحار فى نظر اليابانيين كانت عملياته تجرى قديما فى المعابد المقدسة نفسها . وفى هذا يقول جريفس Griffis فى كتابه عن ديانات اليابان Religions of Japan « إن لوحة الشرف للعظماء والخالدين والقديسين من اليابانيين ليست مملوءة بأسماء المصلحين ولا المحسنين ولا منشئى الملاجىء والمصحات ، بل بأسماء طوائف المنتحرين على طريقة الهارا كيرى »(١) .

---

(١) Griffis; Religions of Japan p. 112.

— ٢ —

مظاهر هذا النوع من الانتحار فى الصين

وكان هذا النظام نفسه متبعا فى الصين ، بل لا تزال له رواسب عميقة فى هذه البلاد إلى الوقت الحاضر ، ولكنه يطبق على وجوه تختلف قليلا فى التفاصيل عن الطرق التى كان يسير عليها اليابانيون . فالانتحار تحث عليه التقاليد والعادات الصينية وتعده شرفا كبيرا للمنتحرين ولذكرياتهم فى حالات كثيرة ولعدة مقاصد . فينتحر الجندى أو الضابط أو الموظف عقب هزيمة حلت ببلاده أو إهانة لحقت الإمبراطور ، وينتحر الشاب حينما يلحق أحد شيوخ أسرته إهانة أو مكروه من أحد الناس ويعجز هو عن أن يثأر له ، ويقصد هؤلاء وأولئك بانتحارهم هذا التعبير عن أنهم قد أصبحوا لا يحتملون الحياة بعد الذى حدث ولا يحتملون ذكرى هذه الهزيمة ولا هذه الإهانة . وتنتحر المرأة عقب وفاة زوجها أو خاطبها للتعبير عن إخلاصها له وأنه لا معنى للحياة عندها بدونه . ومع أنه قد صدرت عدة قوانين تحظر هذا النوع الأخير من الانتحار ، فإن العادات الشعبية لا تزال متمسكة به ، ولا تزال تنظر إلى الأرملة أو المخطوبة التى تنتحر عقب وفاة زوجها أو خاطبها نظرة إكبار وتعظيم .

ولا تقتصر نتائج هذا النوع من الانتحار فى الصين على ما ينال المنتحر فى مثل هذه الأحوال وينال ذكراه من إجلال ، بل قد يكون له بجانب ذلك فى نظر القانون وفى نظر الناس نتائج أخرى تصيب بعض الأحياء . فالقانون يلقى أحيانا المسئولية الجنائية على الشخص الذى كان عمله سببا فى الانتحار . والعقيدة السائدة أن أرواح المنتحرين تثأر لنفسها ممن تسببوا فى انتحار أصحابها ، فتدفعهم دفعا إلى محا كاتهم ، أو تتولى هى قتلهم خنقا إن لم يصيخوا إلى هذا الدافع ويقتلوا أنفسهم بأيديهم .

وبينما تنظر التقاليد الصينية إلى هذه الأنواع وما إليها من الانتحار نظرة إكبار، تنظر إلى ماعداها نظرتها إلى أمور خسيسة صغيرة. فى كتاب من كتبهم المقدسة أن الذين ينتحرون لفرط ولائهم وإخلاصهم للإمبراطور أو براً بآبائهم وأهليهم وأزواجهم وأصدقائهم، تصعد أرواحهم إلى عليين، وأما الذين ينتحرون فى أزمة غضب أو يأس، أو خوفاً من نتائج ما اقترفوه من جرائم يعاقب عليها القانون بالإعدام، أو رغبة فى أن يسبب انتحارهم ضرراً ببرىء، فسيكون نصيب أرواحهم العذاب الأليم فى مناطق الجحيم(١).

— ٣ —

مظاهر هذا النوع من الانتحار عنـــد الهنود

وفى كثير من بلاد الهند كان يعد من مظاهر البر والوفاء أن تنتحر المرأة المتوفى عنها زوجها بأن تحرق نفسها. وظل هذا التقليد سائداً لديهم إلى عهد قريب، ثم استبدل به فى بعض بلاد الهند انتحار تمثيلى. فكان يكتفى عقب وفاة الزوج بأن يؤتى بكومة حطب وتشعل فيها النار، ويؤتى بزوجة المتوفى وتمد على هذه الكومة، ويظل كذلك حتى يقرب اللهب منها(٢).

وقد ساد كذلك الاعتقاد فى بلاد الهند أن الانتحار إذا قصد به التقرب إلى الله أو التضحية بالنفس فى سبيله يصبح فى ذاته عبادة دينية على أن يتم فى صورة

---

(١) Cité par Westermark, op. cit, p. 233, 234.

(٢) انظر السطور ٧ — ١٠ من صفحة ٨٥ من الجزء الأول. — هذا وقد وصف «الهنود» فى السطر الثامن من هذه العبارة بوصف «الحمر». وهو سبق قلم، وصوابه «الهنود» فقط بدون وصف لأن المقصود هناك سكان الهند لا السكان الأصليين لأمريكا الشمالية الذين كانوا يسمون «الهنود الحمر».

من الصور التي تحددها التقاليد والعادات . ومن هذه الصور أن يصوم الشخص عن الطعام والشراب حتى يموت ؛ وأن يلطخ جسمه كله بروث البقر ويشعل النار فيه (يلاحظ أن البقر حيوان مقدس فى الديانة البرهمية الهندية) ؛ وأن يقبر نفسه فى الجليد حتى يقضى نحبه ؛ وأن يغرق نفسه فى مصب من مصبات الجنج Gonnge فى أطراف بلاد البنغال على أن يظل يعدد خطاياه ويردد عبارات التوبة والندم حتى تفترسه التماسيح ؛ وأن يذبح نفسه فى مدينة اللاه آباد حيث يلتقى نهر الجنج بنهر دجومنا Jumna ؛ وأن يظل على قمة من قمم جبال الهملايا حتى يموت من البرد ؛ وأن يغرق بنفسه أو يدفن حيا إذا كان مصابا بالجذام أو بمرض لا يرجى برؤه على أمل أن تنتقل روحه التى تطهرت بهذا الانتحار إلى جسم معافى سليم ؛ وأن يقذف بنفسه من شاهق ليكفر بذلك عن سيئاته أو ليصبح قديسا فى الحياة الأخرى أو ليفى بنذر نذرته أمه ؛ وأن ينتحر البرهمى (طبقة البرهميين هى طبقة رجال الدين ، وهى أرقى طبقة فى الديانة البرهمية) لتثأر روحه ممن أساء إليه أو من أحد خصومه(١) .

وتحكى أساطيرهم حوادث كثيرة من هذا الانتحار المبرور ونتائجه المحققة . فمن ذلك أن أحد الحكام قد أراد أن يفرض على طبقة البرهميين فى مقاطعته ضريبة للدفاع الوطنى ؛ فثارت طائفة من كبار أغنيائهم ، وحاولوا أن يثنوه عن عزمه ، فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، فانتحروا جميعا على مرأى منه بشق بطونهم بالخناجر ، مرددين اللعنات على هذا الحاكم مع أنفاسهم الأخيرة ؛ فخسر هذا الحاكم دنياه وآخرته ، وثار عليه شعبه وأقصاه عن منصبه . ومن هذه الأساطير أن إحدى البرهميات قد غرر بها أحد الحكام حتى نال منها مأربه فأحرقت نفسها وأخذت فى ساعاتها الأخيرة تصب اللعنات على هذا الحاكم وأسرته ، فاستجاب الله دعاءها ، وأنزل عليهم سخطة وسلط عليهم الكوارث والمصائب ، وأضطرهم إلى الرحيل عن البلاد تاركين ديارهم وأموالهم ؛ ومن ذلك

---

(١) Westermarck op, cit. p. 235

الحين أصبح قبر هذه البرهمية ضريحا مقدسا يزوره الناس ويؤدون فيه صلواتهم ومناسكهم . ومن هذه الأساطير كذلك أن أحد الحكام قد منح قطعة أرض لأحد البرهميين ، فبنى هذا البرهمى مسكنا عليها ، ثم رجع الحاكم فى هبته فهدم المنزل واسترد الأرض ، فذهب البرهمى إلى بيت هذا الحاكم وظل جالسا أمام بابه صائما عن الطعام والشراب والغطاء حتى مات من الجوع والعطش والبرد ؛ فثأرت روحه من الحاكم فأهلكته ودمرت بيته .

وقد ساد فى الهند كذلك تقليد غريب يطلق عليه اسم « دهارنا » وذلك أن الدائن إذا ماطله مدينه ، يذهب إلى بيته ويتهدده بأن يظل جالسا أمام بابه حتى يموت من الجوع والعطش والبرد إذا لم يوفه دينه . ويعد هذا اعنف إجراء يمكن أن يلجأ إليه الدائن الممطول . ويتوجس المدين خيفة من نتائج هذا الانتحار ، فلا يدخر وسعا فى سداد ما عليه ، وخاصة إذا كان الدائن برهميا ، يخشى من بطش روحه الشديد إذا أنفذ ما هدد به .

— ٤ —

مظاهر هذا النوع من الانتحار عنـــد اليهود

ومع أن التعاليم اليهودية السائدة تعتبر الانتحار جبنا وانحطاطا وكفرانا بنعم الرب وتعديا لحدوده ، وتوقع بعض عقوبات على جسم المنتحر ، فتترك جثته ملقاة حتى غروب الشمس ، وتحرم رثاءه والحداد عليه ولبس السواد من أجله ، هذا إلى ما يدخر لروحه من عذاب بعد الموت ، مع ذلك نرى أن التلمود — وهو من أهم كتب التشريع لديهم[1] — يغتفر الانتحار ، بل يكاد يعده عملا

(١) انظر كتابنا فقه اللغة ص ٤٨ من الطبعة الرابعة .

مجيدا ، إذا أقدم عليه قائد جيش يهودى بعد هزيمته حتى لا يقع أسيرا ويلق المهانة والفضيحة على يد العدو ، أو إذا أكره يهودى على الارتداد عن دينه فآثر الانتحار على الكفر بربه[١] .

— ٥ —

مظاهر هذا النوع من الانتحار
عند قدامى اليونان والرومان

وقد انتشر عند قدامى اليونان والرومان مذهب فلسفى يحبذ الانتحار إذا أصبحت الحياة مصدر بؤس وشقاء ، وهو المذهب الرواقى Stoïcisme [٢] .

وفى هذا يقول الفيلسوف الرواقى سنكا Sénèque[٣] : « لا يلوم البائس فى هذه الحياة إلا نفسه . فنى استطاعته أن يضع حدا لبؤسه بالقضاء على حياته . فكما أن الفرد يختار السفينة التى يبحر عليها ، والمنزل الذى يسكنه ، ويحرص على أن يكون كلاهما محققا لراحته ، كذلك ينبغى أن يختار لنفسه طريق الموت الذى يكفل إنقاذه . فليس ثمة بائس ولا شقى فى هذه الحياة إلا وقد رضى لنفسه هذا البؤس وهذا الشقاء . فلتعش أيها البائس إذا كان يروقك هذا البؤس ،

---

(١) Cf. I. Samuel XXXI, 4, cité par Westermarck II, 237.

(٢) مؤسس المذهب الرواقى هو زينون السيتيومى Zenon de Citium . وهو فيلسوف يونانى ولد ببلدة سيتيوم فى نهاية القرن الرابع قبل المسيح . وقد كان انتشار المذهب الرواقى عند الرومان أوسع كثيرا من انتشاره فى بلاد اليونان التى كانت مهد نشأته . وقد اعتنقه فى بلاد الرومان كثير من فلاسفتهم ، بل اعتنقه بعض القياصرة أنفسهم . ومن أشهر القياصرة الذين اعتنقوه مارك أوريل Marc - Aurèle (امبراطور من ١٦١ إلى ١٨٠م) .

(٣) من أشهر فلاسفة الرومان ومن أعلام المذهب الرواقى ولد فى السنة الثانية للميلاد وتوفى سنة ٦٦ م .

أما إذا كان لا يعجبك فأمامك السبيل ممهدا لأن تعود إلى الأرض التى منها خلقت[1] » .

وقد ساد عند اليونان والرومان ان بعض المحكوم عليهم بالإعدام ، وخاصة فى بعض الجرائم الدينية والوطنية ، يكرهون على الانتحار بتجرع السم أو قطع الشرايين . فسقراط قد حكم عليه بأن يتجرع السم ، وسنكا قد حكم عليه نيرون بأن يقطع شرايين يده بنفسه .

— ٦ —

مظاهر هذا النوع من الانتحار عند قدامى رجال الكنيسة المسيحية

وكان القدامى من آباء الكنيسة يحبذون الانتحار فى بعض الأحوال وخاصة فى حالتين : إحداهما أن ينتحر المسيحى حفاظا على دينه إذا أكره على الارتداد عنه ؛ وثانيهما أن تنتحر المسيحية البكر حفاظا على بكارتها إذا رأت نفسها مهددة بزوالها فى السفاح . وفى هذا يقول لاكتانس Lactance[2] : « إنه لمن أكبر المعاصى أن يقتل المرء نفسه . ولكن عند ما يرى المسيحى نفسه مهددا بالنكال أو العذاب إن لم يرتد عن دينه فأولى له فى مثل هذه الحالة أن يضع حدا لحياته بيده لا بيد الكفار » . ويروى يوزيب Eusèbe [3] فى كتابه عن تاريخ المسيحية

---

(١) Sénèque. Epist. 15 et suiv. cité par Westermarck, op. cit. II, 239.

(٢) من كبار رجال الكنيسة المسيحية ، ولد حوالى سنة ٢٥٠ . ومن أشهر مؤلفاته : « من صنع الله de l'œuvre de Dieu » و «النظم الإلهية Les Institutions divines »

(٣) من كبار رجال الكنيسة المسيحية ومن أشهر المؤرخين فى تاريخ المسيحية ونظمها ، ولد حوالى سنة ٢٦٥ وتوفى حوالى سنة ٣٤٠ .

حالات كثيرة لمسيحيات وجدن عفافهن مهددا فانتحرن حفاظا عليه ، وينظر هو فى مؤلفه هذا ، كما ينظر غيره من قدامى رجال الكنيسة المسيحية فى مؤلفاتهم ، إلى هذا العمل نظرة عطف وحنان إن لم تكن نظرة رضا وقبول . بل إن بعض هؤلاء المنتحرات قد سجلت أسماؤهن فى لوحة الشرف بين كبار من خلد التاريخ أسماءهم(١) .

ولكن الكنيسة المسيحية فى عصورها التالية قد حرمت الانتحار تحريما باتاً أيا كان الدافع إليه ، وجعلته من كبريات الجرائم الدينية بل جعلته أشد جرما من القتل العادى(٢) .

مراجع هذا الفصل

لم نقصد هنا إلى دراسة الانتحار على العموم ، وإنما قصدنا إلى عرض أمثلة لنوع واحد غريب من أنواعه وهو الذى توجبه العادات والتقاليد . ومعظم مراجع هذا النوع مذكورة فى التعليقات .

وأما مراجع الانتحار على العموم وبيان أسبابه ومبلغ انتشاره فى مختلف الأمم واحصائياته والقوانين التى يخضع لها فمن أهمها :

Durkheim : Le Suicide

Halbwachs : Les Causes du Suiciede

Bayet (Albert) : Le Suicide et la Morale.

Westermarck : op. cit. T. II.

---

(١) Cité par Westermarck, op. cit. II, 241

(٢) انظر مؤلفات سانت أوجيستان وسان توماس والعبارات المنقولة عنهما وعن غيرهما فى Westermarck, op. cit. II 242 et suiv.

الباب السادس

من غرائب التقاليد والعادات

الفصل الأول

بعض مظاهر غريبة لمهارة البدائيين

من أهم مظاهر النشاط الاجتماعي التي تبدو فيها مهارة البدائيين ثلاثة مظاهر : الصيد والفروسية والقتال .

وهذه النواحي الثلاث تربطها بعضها ببعض روابط وثيقة حتى لتبدو كأنها مجرد مظاهر لنوع واحد من النشاط . فهي قائمة على دعامة واحدة وتشبع نزعة واحدة من نزعات الإنسان . فالصيد والقتال كلاهما ينطوي على الإغارة والعدوان ، وكلاهما يرمي إلى التغلب على العدو أو القنيص وأسره أو اهلاكه . أما الفروسية فلم تكن غاية في ذاتها وإنما كانت مجرد وسيلة لهذين الأمرين .

وكانت هذه الأمور عند كثير من البدائيين ، وخاصة عند السكان الأصليين لأمريكا الشمالية ، وهم الهنود الحمر ، من أنبل الأعمال الإنسانية جميعا وأجلها منزلة وأعظمها خطراً .

ولذلك اختص بها الرجال دون النساء ، بل كان نشاط الرجال مقصورا عليها وحدها . أما مادون ذلك من الأعمال في داخل المنزل وخارجه فقد كان يقع على كاهل الجنس الضعيف .

وقد نبغ ساكنو السهول من الهنود الحمر في شئون الصيد والفروسية والقتال أيما نبوغ ، وجودوا أعمالها كل التجويد ، وبلغوا في مضمارها منزلة منقطعة النظير ، حتى تميزت بها شخصيتهم ، وكان لها أكبر شأن في تاريخهم من قبل الاستعمار الأوربي ومن بعده . وكانوا يعالجونها بمناهج وطرق ممتعة بارعة ، ويأتون فيها بأعمال غريبة خارقة للعادة حار الباحثون في تفسير كثير منها حتى لقد ظن بعضهم أنها من ضروب السحر .

فالمسائل التى سنعالجها فى هـــذا الفصل تجمعها إذاً عدة صفات مشتركة ، وترتبطها عدة روابط وثيقة ، ويأخذ بعضها بحجز بعض .

وسنعرض فيما يلى لأهم ما يستوقف النظر ويبعث على الحيرة والتساؤل من مهارة هؤلاء البدائيين فى هذه النواحى الثلاث .

— ١ —

مظاهر غريبة من الصيد عند البدائيين

من مظاهر الصيد الممعنة فى الغرابة عند البدائيين ما كان يتخذه الهنود الحمر من طرق فى صيد الحصان والجاموس الوحشيين .

* * *

أما فيما يتعلق بالحصان الوحشى فقد كانت عملية صيده عملية فردية يعالجها شخص واحد ، ولا تقتضى تعاون جماعة كما كان الشأن فى بعض الحيوانات الأخرى كالجاموس الوحشى وما إليه . فكان الصائد[1] يخرج وحده ممتطيا صهوة جواد مستأنس ، ويتعمد أن يخرج عاريا حتى لا تعوق الملابس حركته وما كان يحمل معه من آلات الصيد وحاجات الزاد إلا حبالة تتدلى على ذراعه الأيسر (وكانت تضفر فى العادة من ليف أو جلد وتنتهى بطوق معدنى أو بأنشوطة يمر فيها الطرف الآخر للحبل . فيتكون فى آخره طوق يلتف حول عنق القنيص

---

(١) الطريقة التى سنذكرها كانت متبعة على الأخص عند عشائر الشيين Cheyennes فى جنوب ميسورى . وقد لاحظها العلامة كاتلان « Catlin » الذى يعد من أعمق الباحثين فى حياة الهنود الحمر وأدقهم ملاحظة لشئونهم .

ويتسع أو يضيق حسب الحاجة) وسوطا فى يده اليمنى ، وخرجا صغيراً فوق كتفه يحفظ فيه كمية من جريش البن هى زاده فى سفره الطويل الذى قد يستغرق عدة أيام ، فكان يتبلغ بهذا البن ويستحلبه من حين لآخر كلما أحس وطأة الجوع .

يبحث الصائد عن آثار قطيع للخيـــل ، ويقص هذه الآثار حتى يقرب من القطيع ، فيركض فرسه مندفعا نحوه حتى يتوسطه أو يكاد ، فيضطرب شمل القطيع ويسوده الذعر وتشمله الفوضى . وفى أثناء ذلك يكون الهندى قد ألقى نظرات فاحصة خاطفة على مختلف أفراده ووقع اختياره على واحد منها يتوافر فيه ما يروقه من صفات .

وحينئذ يترجل الصائد ، ويترك فرسه المستأنس يسير وراءه ، ويأخذ فى تعقب القطيع ، متجها دائما شطر الحصان الذى اختاره . فينفر القطيع منه فى صورة لا تنم على شدة الخوف ، إذ يحس أفراده أن سرعة من يتعقبها ليست شيئا مذكورا بجانب سرعتها ، وأنه لذلك لن يستطيع سبيلا إلى دركها ، فتقصد فى خببها(١) ، وتقف من حين لآخر محدقة فى هذا المخلوق الضئيل البطىء الذى يتعقبها ، ويستهويها فى ركضها ووقوفها نشاط المرح واللعب وحب الاستطلاع والاستخفاف بالخصم والسخرية منه أكثر مما يستفزها الخوف أو يثيرها الانزعاج .

ولكن الهندى لا يأبه بما توجهه إليه من سخرية أو ازدراء . ويتابع سيره بخطوات منظمة على وتيرة واحدة ، متوسطة السرعة بين الهوينا والعدو . وكلما التقى بالقطيع اتجه شطر الحصان الذى وقع عليه اختياره ووجه إليه نظرات نافذة مريبة . فلا يلبث هذا الحصان بعد عدة التقاءات من هذا القبيل أن تلعب بنفسه المخاوف ، ويوقن أنه مقصود بالذات ، فيتملكه الذعر ، ويجفل ثم ينبت

---

(١) الخبب ضرب من عدو الخيل وهو خطو فسيح دون العنق . وقصد فى خببه قصدا توسط ولم يجاوز الحد . ومنه قوله تعالى : « واقصد فى مشيك » وقوله : « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك » .

عن قطيعه ، ويعدو بأقصى سرعته ، ويتابع عدوه شوطا بعيدا ، ثم يقف ظانا أنه قد بعد عن الخطر . ولكنه لا يكاد يلتفت وراءه حتى يلمح الهندى خلفه يسير بخطواته الهادئة الوئيدة . فينفر الحصان ويزيد من سرعة عدوه ومن مسافة شوطه حتى يوقن أنه قد أصبح من المستحيل على الإنسان أن يدركه ، ويرجع بصره وراءه رجع المزهو بانتصاره ، فينقلب إليه البصر خاسئا وهو حسير ، إذ يلمح الهندى قاب قوسين منه أو أدنى .

هذا . والهندى يمشى على الأرض هونا ، لا يغير شيئا فى خطوته الوئيدة ، ولا يزيد فى سرعته التى لا تذكر بجانب سرعة الحصان .

فأى سحر هذا الذى يستخدمه الهندى حتى يقطع بمشيته الهادئة من المسافات ما يقطعه الحصان بعدوه السريع مع اتحاد الزمن الذى يستغرقه المتسابقان ؟

لا يستخدم الهندى فى ذلك شيئاً من السحر ، ولكنه يستخدم العلم بطبائع الحيوان ، ويفيد من خبرته وملاحظته لأساليب الحصان فى عدوه . وذلك أن كثيراً من كبار الحيوانات الثديية كالخيل والوعول وما إليهما لا تسير فى عدوها على خط مستقيم ، ولكنها ترسم أقواسا وأنصاف دوائر تتصل حافاتها بهذا الخط . فهى فى كل شوط من أشواطها تبدأ من نقطة فى هذا الخط وتنتهى بنقطة أخرى عليه ، ولكنها تسلك أبعد الطرق لقطع المسافة بين هاتين النقطتين ؛ فتقطعها فى خط منحن واسع ترسمه فى الغالب على يسار الخط المستقيم . فالهندى يعرف ذلك ، ويعرف أن حصانه سينتهى به المطاف فى كل شوط من أشواطه إلى الخط المستقيم الذى بدأ عدوه منه . فلا يكبد نفسه مشقة الجرى وراء الحصان ولا متابعته فى خطوطه المنحنية ؛ وإنما يسير بخطواته المتزنة الهادئة فى الخط المستقيم ، موقنا أنه على هذا الخط سيجتمع الشتيتان ، وسيلتقى لا محالة بقنيصه . فالمسافة التى يقطعها الهندى فى سيره المستقيم للوصول إلى نقطة ما ليست شيئا مذكوراً بجانب المسافة التى يقطعها الحصان فى سيره المنحرف للوصول إلى النقطة نفسها . والفرق بين المسافتين يعادل الفرق بين السرعتين .

فلا يكاد الحصان يصل إلى هـذه النقطة بعدوه السريع حتى يكون الهندى قد بلغها بخطواته الوئيدة .

ومن هنا يتبين السبب الذى من أجله يؤثر الهندى فى الغالب أن يعالج عمليات هـذا الصيد راجلا ويترك فرسه المستأنس يسير وراءه ؛ لأنه يخشى إن عالجها راكبا أن يستسلم فرسه المستأنس لطبيعته ومناهجه الفطرية فى العدو ، ويندفع فى متابعة الحصان الوحشى فى سيره المنحرف ، فيخفق فى إدراكه ،لاتحاد المسافة التى يقطعها كلاهما مع تفوق الوحشى على المستأنس فى السرعة لحالة الذعر المستولية عليه من جهة وعدم وجود ثقل فوق ظهره من جهة أخرى .

وبعد عدة ساعات يدب الضعف والوهن إلى الحصان الوحشى ، ويتبين الهندى ذلك من كثرة وقفاته وتتابعها وقصر المدة التى يستغرقها كل شوط من أشواطه . وحينئذ يحث الهندى خطواته حثا خفيفا ، فى حين تشتد مظاهر الإعياء على الحصان شيئا فشيئا ، فتتناقص مسافة كل شوط من أشواطه ، حتى لا تتجاوز بضع عشرات من الأمتار ، وتطول مدة وقوفه للراحة بين كل وثبة وأخرى . ويظل الهندى سائراً على وتيرته ، مع حث خفيف لخطواته فى هذه المرحلة ، وتتناقص المسافة التى تفصله عن الحصان فى كل وقفة من وقفاته شيئا فشيئا حتى تصبح بضعة أمتار . .

وحينئذ تتدافع الحوادث وتسرع نحو نهايتها ، فيطول توقف الحصان بين كل شوط وآخر ويرتفع قبعه وتحيطه (١) ، والهندى كالظل يلاحقه غير تارك له فرصة للراحة ، ولا وسيلة للاستجمام . فيجفل الحصان جفلته الأخيرة ، ولكن لا تطاوعه فى هذه المرة على العدو ساقاه المرهقتان ، فيقف فجأة حيث يكون الهندى على بضعة أمتار منه .

---

(٢) القبع صوت يردده الفرس من منخريه إلى الحلق ويكون من نفارة من شىء يتقيه ، والنحيط صوت الفرس من الإعياء ، ويكون من الصدر إلى الحلق .

فيبطىء الجندى فى سيره ، ويتقدم نحو الحصان بخطوات متزنة جريشة ، ثم يتناول حبالته ، ويمسك بطرفها المرسل فى يده ، ويقذف طرفها المعقود نحو قنيصه فى رمية سريعة ماهرة لا تخفق ولا تطيش ، فإذا طوق الحبالة حول رقبة الحصان ، وإذا بقطر هذا الطوق يضيق شيئاً فشيئاً حتى ليكاد يعصر حلقه عصرا .

* * *

ولعل الجنود الحر قد اقتبسوا هذه الطريقة فى متابعة قنيصهم عن بعض الحيوانات المفترسة وخاصة الدب والذئب . فالدب مثلا يتعب فريسته بخطوات متثاقلة ، ولكنها منظمة ، تسير على وتيرة واحدة ، لا تنقص سرعتها ولا تزيد ، بينما تقفز الفريسةُ مهتاجة بخطوات سريعة لا تذكر بجانبها خطوات الدب . ولكنها لا تلبث بعد بضع ساعات أن تهن قواها ، وتضعف حركتها . ويكون الدب فى أثناء ذلك قد قطع بخطواته الوئيدة المرحلة نفسها التى قطعتها فريسته بخطواتها المهتاجة السريعة . وذلك لأنه يسير على خط مستقيم ، بينما تسير هى فى أنصاف دوائر تتصل حافاتها بهذا الخط ؛ فلا يفترقان إلا ليلتقيا ، ثم يفترقان ويلتقيان مرة أخرى ... وهكذا دواليك ، حتى يلتقيا فى وقت تكون فيه الفريسة قد نالها الوهن ، وأخذ منها الإعياء كل مأخذ لطول المسافات التى قطعتها فى هذه الأقواس ؛ فى حين يكون الدب لا يزال موفور القوى لقصر المسافة التى قطعها ، ولسيره بخطوات وئيدة مريحة . وما هو إلا أن يثب عليها وثبة واحدة حتى تسلمها المنون إلى ذراعيه الجبارتين .

* * *

ولا تكاد الحبالة تأخذ برقبة الحصان حتى تثور ثائرته ، فيرتفع نخيره ، وتصطك أسنانه ، وينتفخ منخراه ، وتبرز عيناه ، وتقذفا بالشرر ، ويضرب بقوائمه ضرب المذبوح فى مختلف الجهات .

ولكن الجندى لا يأبه بهذا كله ، ويتقدم إليه رابط الجأش ، ويمسح بيده على بعض أجزاء جسمه ، فيذلل له الحيوان ، ويتم له إخضاعه .

وفى فجر اليوم التالى ينقلب الهندى إلى أهله فرحا بما أفاء الله عليه من غنيمة ، ممتطيا صهوة جواده الجديد الذى تم استئناسه فى بضع ساعات ، ويقود وراءه جواده القديم .

* * *

هذا ، وليس من بين الأعمال التى يأتيها الهندى فى صيده ما هو أدعى للدهشة ، وأعسر على الفهم ، وأدنى أن يكون من الأمور الخارقة للعادة ، من موقفه الأخير فى صيد الحصان الوحشى ، إذ يتم له استئناسه بمجرد الاقتراب منه وامرار يده على بعض أجزاء جسمه . فجميع الأعمال الأخرى ، على ما فيها من حذق ومهارة ، قائمة على ما أفاده الهنود الحمر من تجاربهم وخبرتهم بطبائع الحيوان ، أو على محاكاتهم لما يتخذه بعض السباع من مناهج فى الحصول على قنصها . أما أن يتقدم الهندى نحو حيوان متوحش وهو فى عنفوان ثورته وأشد حالات ذعره وهياجه فيلمسه بيده لمسا خفيفا ، فإذا هو فى لمح البصر هادىء مطمئن مستأنس وديع ، فهذا ما تحار فى تأويله العقول .

وقد حار الباحثون فى تأويل هذه الأعمال وما إليها ، حتى لقد رأى بعضهم أنها من ضروب السحر والإيحاء أو التنويم المغناطيسى وما إلى ذلك من الفنون المتصلة بما وراء الطبيعة أو بالنواحى الخفية من النفس .

فهم يقررون أن هذه الفنون قد بلغت لدى هؤلاء البدائيين مبلغا كبيرا ، وأنهم كانوا يلجأون إليها فى كثير من شئون حياتهم ، وأن كبار سحرتهم كانت لديهم عن فنهم أسرار خطيرة ما كانوا يبوحون بها إلا لنفر قليل من صفوة تلاميذهم ومريديهم ، وأنهم كانوا يأتون أعمالا تحير عقول الأوربيين . فقوة تأثيرهم على كثير من الحيوانات — لأن هذه الظاهرة لم تكن فى الحقيقة مقصورة على الحصان ، بل كانت تتحقق كذلك فى حيوانات أخرى كثيرة — لا بد فى نظر هؤلاء أن يكون مرجعها إلى السحر أو إلى تدخل قوى خارجة عن الطبيعة ؛ إذ لا يمكن تأويلها فى نظرهم عن طريق آخر .

وثمة شواهد أخرى كثيرة تدل على أن هؤلاء الهنود مزودون ببعض قوى واستعدادات لا نظير لها بين العاديين من المتحضرين . فقد ثبت أن كثيرا منهم قد بلغ مبلغا كبيرا فى شئون التنويم المغناطيسى ، فيستطيع بسهولة أن ينوم نفسه أو ينوم غيره ، ويتحقق فى أثناء ذلك على يديه أو يدى وسيطه أمور خارقة للعادة عن طريق الإيحاء للغير أو الإيحاء الذاتى . وثبت كذلك ان كثيرا منهم مهيئون خير تهيئة لأن يكونوا وسطاء من الطراز الأول فى عمليات التنويم المغناطيسى .

ولعل هؤلاء البدائيين قد اكتسبوا هذه القوى السحرية والمغناطيسية من محنة التعميد Initiation التى كان يجتازها كل فرد منهم عند ما يبلغ سنا معينة حتى يلتحق بالجمعية الدينية ويقف على خفاياها وأسرارها . فالطقوس المعقدة التى كان يخضع لها فى أثناء التعميد ، وأنواع العذاب والآلام التى كان يتحتم عليه ان يذوقها مختارا ، والانقطاع عن متع الحياة ، وملازمة الصيام حتى عن الكلام أحيانا ، والعبادات المختلفة التى كان لزاما عليه أداؤها فى مختلف ساعات الليل والنهار ، وحركات الرقص الدينى العنيف ، والأغانى المؤثرة التى كان يردد بها أوراده ، كل أولئك كان من شأنه أن يجرده شيئا فشيئا من ماديته ، ويوقظ نواحيه الروحية ، ويكسبه قوى خاصة تتجاوب مع بعض الكائنات وظواهر الكون وتؤثر فيها عن طريق الإيحاء والمشاركة الوجدانية وما إليهما . والحيوانات من أشد الكائنات تأثرا بالايحاء ومن أدقها احساسا بمظاهر المشاركة الوجدانية . ألم تر إلى الكلب أو القط مثلا كيف ينجذب نحو بعض الغرباء من الأناسى والحيوان ، فيشعر نحوهم بالاطمئنان ؛ فى حين ينفر من بعضهم ، ويحس حيالهم الخوف والانزعاج ؛ بدون أن يكون فى مظهر هؤلاء ولا أولئك ما يدعو إلى المسلك الذى سلكه حيالهم . فلعل التفاعل بين القوى الروحية والمغناطيسية التى يكتسبها الهندى فى أثناء مرحلة التعميد ، وبين الشعور الخفى للحيوان ، وقابليته للتأثير بالإيحاء وشدة احساسه بالمشاركة الوجدانية . . . لعل هذا التفاعل هو

الذى يذلل للهندى وسائل التأثير فى الحيـــوان .

ويرى فريق آخر أن الهندى مزود بحواس مشبهة لحواس بعض الحيوانات ولا نظير لها عند المتحضرين من بنى الإنسان ، وأن هذه الحواس هى التى يستخدمها فى إدراك ما يجول بخاطر الحيوان وهى التى تتيح له وسائل التأثير عليه. وذلك ان الحيوانات مزودة بحواس غريبة لا نظير لها عند الإنسان المتحضر . ومن ذلك حاسة الاهتداء Sens de l'orientation التى توجد لدى طائفة كبيرة من الحيوانات والطيور والحشرات كالحصان والحمار والـكلب والحمام والنمل والنحل . فهذه الحيوانات لا تضل طريقها إلى منازلها مهما بعدت عنها أو أبعدت. ومن ذلك أيضا الإحساس ببعض الظواهر الجوية والجيولوجية وتسجيلها قبل حدوثها أو فى أثناء حدوثها . فجميع الحيوانات تقريبا تحس الهزات الأرضية قبل حدوثها .

غير أن هذه الفروق التى يتسع نطاقها بين الحيوان والإنسان المتحضر تتضاءل كل التضاءل أو تنعدم بينه وبين الإنسان البدائى . فمعظم هذه الغرائز والحواس التى يمتاز بها الحيوان عن الإنسان المتحضر ، لها أشباه ونظائر عند البدائى . فحاسة الاهتداء وإدراك الظواهر الجوية والجيولوجية قبل حدوثها ، وقوة الشم ... كل ذلك يتوافر لدى البدائى فى درجة من الحدة والقوة لا تـكاد تختلف عن درجته لدى الحيوان . فقد يكون بعض الحواس التى لا نظير لها لدينا هى التى يستخدمها الهندى فى إدراك ما يجول بخاطر الحيوان ، وهى التى تتيح له وسائل التأثير عليه. أو قد يكون التجاوب بين بعض الحواس الخفية عند الهندى ونظيرها عند الحيوان هو الذى يؤلف بين نفسيهما ، ويحقق بينهما التفاهم والتعارف والوئام . فالنفوس جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تنافر منها اختلف .

* * *

ولـكن يظهر لنا أن السبب فى هذه الظاهرة قد يكون أيسر من هذا كله . فقد يكون السبب فيها أن توحش الحصان كان طارئا فى هذه القارة ، وأن قطعان

الخيول التي كانت تهيم في سهولها منحدرة في الأصل من حيوانات كانت مستأنسة ومذللة للانسان .

وفي الحق أن قصة هذا الحيوان بهذه القارة لتؤيد هذا التفسير كل التأييد . فمن المسلم به أن هذا الحيوان لم يكن معروفا للسكان الأصليين في العصر الذي دخل فيه الأوربيون هذه القارة . ويدل على ذلك أن قدماء المكتشفين والغزاة من الأوربيين ، أمثال فرنسوا بزار François Pizarre الذي أخضع عشائر الإنكا Inca وهم سكان بيرو الأصليون (١) ، وفرناند كورتز Fernand Cortez الذي أخضع عشائر الأزتك Aztèques وهم سكان المكسيك الأصليون(٢) لم يعثروا على هذا الحيوان ، بل لم يعثروا على أي أثر أو صورة له في أية منطقة من المناطق الواسعة التي كان يسكنها قبائل الإنكا ببيرو وقبائل الأزتك بالمكسيك ، مع أن هذه القبائل كانت من أرقى سكان أمريكا الأصليين مدنية وأعرقها حضارة . بل إن أفراد هذه العشائر كان يتملكهم الفزع عند رؤيتهم الحصان مع الأوربيين ، وكانت نفوسهم تطير شعاعا عند سماعهم حمحمته وصهيله .

ومن المسلم به كذلك أنه قد أفلت من جيش كورتز Cortez في أثناء تقهقر سريع فجائي اضطر إليه في غزوة من غزواته ببلاد المكسيك نحو خمسين فرسا ، وأن هذه الأفراس قد هامت على وجوهها في سهول هذه القارة . فلعل هذه الأفراس هي التي تألف من سلالتها في نحو نصف قرن هذا العدد الكبير من قطعان الخيول ، التي أصبحت مع تقادم عهدها بالاستئناس شبه متوحشة أو في حالة بين التوحش والاستئناس ، ولعل هذه الخيول هي التي كان يتعقبها الهنود الحمر بالصيد ويردون ما يصيدونه منها إلى حالة الاستئناس .

---

(١) رحالة أسباني (١٤٧٥ — ١٥٤١) وقد غزا شعوب الإنكا بمنطقة بيرو وأخضعها لإسبانيا .

(٢) ضابط أسباني (١٤٨٥ — ١٥٤٧) وقد غزا شعوب الأزتك بالمكسيك وأخضعها لإسبانيا .

وعلى ضوء ذلك يمكن أن نعلل السهولة التى كان ينتقل بها الحصان من حالة الوحشية إلى حالة الاستئناس ، وندرك العوامل التاريخية الخفية التى كانت تذلل للهندى وسائل النجاح فى حركته الجريئة ، إذ كان — كما قلنا — يتقدم نحو الحصان الذى صاده وهو فى أشد حالات ثورته ، فيمسح عليه بيده مسحا خفيفا ، فإذا هو حمل مستأنس وديع . وذلك أننا بصدد حيوانات طرأ عليها التوحش ، لأنها منحدرة من أصول كانت مستأنسة ومذللة للإنسان . ولذلك كان ينتقل إليها عن طريق الوراثة النوعية Atavisme الميل إلى الاستئناس الذى كان عند آبائها الأولين . ولكن هذا الميل كان يظل كامنا لديها إلى أن تتاح له فرصة للظهور ، ويتحقق ما يثيره ، شأنه فى ذلك شأن جميع الصفات الوراثية الكامنة . ولعل ملاصقة الهندى للحيوان ومسحه على جسمه ... لعل كل ذلك كان الفرصة المواتية لإثارة هذا الميل وانبعاثه من مكمنه ، فتعاود الحيوان حينئذ على حين غرة نزعته القديمة إلى معاشرة الإنسان والخضوع له ، فيسلم نفسه إليه .

* * *

وأما فيما يتعلق بصيد الجاموس الوحشى Bison فقد كانت قطعان هذا الحيوان تستأثر بأكبر حيز من هذه القارة ويكاد مثار نقعها يحجب ضوء الشمس ، حتى إن قطيعا واحداً منها قد شغل فى أثناء هجرته مساحة عرضها سبعون ألف متر ، وبلغ طوله أن أنعامه ظلت تتدافع بعضها إثر بعض فى سير سريع مطرد مدة خمسة أيام متواليات .

ولغزارة هذا الحيوان وعدم وجود مراع واسعة تكفيه مدة طويلة فى منطقة واحدة كان لا ينفك يهاجر فى طلب الكلأ من موطن لآخر . ولما كانت حياة الهنود الحمر متوقفة عليه كانوا يرحلون معه أينما رحل ويحلون حيثما حل ، ولا يفتأون فى حلهم وترحالهم يشنون عليه غارات الصيد ، ويتزودون منه بما يسد حاجتهم للغذاء والكساء ومرافق الحياة .

وكان صيدهم لهذا الحيوان ينتهي دائماً بالإجهاز عليه ، فلم يحاولوا مطلقا صيده حيا ولا استئناسه ، كما كانوا يفعلون مع الحصان الوحشي . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى سهولة حصولهم عليه ، وغزارته في حالته الطبيعية ، حتى إن الحاجة لا تدعو إلى إغائه بالاستئناس . هذا إلى أنه كان كامل التوحش غير مهيأ للدجون ، على عكس ما كان عليه الحصان الوحشي .

وكان أهم مواسم صيده قبل الشتاء ، حيث يندفع لطلب الكلأ مهاجراً صوب الجنوب في قطعان يصعد عدد بعضها إلى عدة ملايين ، ويهبط بعضها إلى بضعة آلاف ، ويخترق السهول في طرائق معينة معروفة تسمى « مسالك الجاموس » .

ففي هذا الفصل على الأخص كانت كل عشيرة من عشائر الهنود الحمر تبعث روادها يجوسون خلال هذه المسالك ، ثم يقفلون بأنباء دقيقة عن مستقر الأنعام ومسيرها . فيستخف العشيرة الفرح بهذه البشرى ، حتى ليكاد أفرادها يخرجون عن وقارهم ، ويسلمون أنفسهم لرقصات دينية عنيفة وغناء صاخب ، ثم يبتهلون إلى آلهتهم أن تجعل التوفيق رائدهم في صيدهم وتهيء لهم من أمرهم رشداً .

وبعد أن يصبغ الرجال جسومهم بألوان خاصة جرت بها التقاليد في حفلات الصيد ويعدوا أسلحتهم وخيولهم يأخذون طريقهم نحو القطيع ، يتبعهم الأولاد والنساء .

وكانوا يحرصون على التخفيف عن خيولهم بقدر المستطاع في المرحلة الأولى ، وهي مرحلة السفر للحاق بالقطيع ، حتى لا ينالها التعب فتعجز في أثناء الصيد نفسه عن بذل ما ينبغي بذله من مجهود . ولذلك كانوا يؤثرون في أثناء هذه المرحلة أن يجنبوها [1] ويسيروا رجالا بجوارها ، ولا يمتطوها إلا حيث يشرفون على القطيع ويشرعون في عمليات الصيد . وهذا هو عكس ما كانوا يفعلون في صيدهم للحصان الوحشي . فقد كانوا في صيد الحصان الوحشي يقطعون المرحلة

---

(١) جنب الفرس يجنبه من باب قتل إذا قاده إلى جنبه .

الأولى وهى مرحلة السفر للحاق بالقطيع على ظهور خيولهم ثم يعالجون عمليات الصيد نفسها رجالا .

وكانت دوافع ترجلهم فى الحالة الأولى تختلف كل الاختلاف عنها فى الحالة الأخرى . فى صيد الجاموس الوحشى كان يدفعهم إلى ذلك حرصهم على التخفيف عن خيولهم فى مرحلة السفر الأولى حتى تباشر عمليات الصيد وقواها سليمة موفورة ؛ ولكن فى صيد الحصان الوحشى كان يدفعهم إلى ذلك خوفهم من أن تفسد عليهم خيولهم المستأنسة خططهم فى الصيد ، وتنحرف فى عدوها عن الطريق الجادة التى ينبغى أن يسلكوها فى تعقب طرائدهم .

وكانوا يقضون أحيانا فى سفرهم مدة طويلة قبل أن يشرفوا على قطيع الجاموس ، وتتبين لهم أشراطه عن كثب فى سحب الغبار التى تتألف من مثار نقعه ، ودوى الرعد المنبعث من خواره وغمغمته وصعاقه[1] ورجع أنفاسه فى أثناء سيره وتدافع أفراده بعضها إثر بعض .

وبعد أن يشرف أفراد العشيرة على القطيع ، يمتطى الرجال صهوة خيولهم ، وتنقسم القافلة عدة كتائب لكل كتيبة منها عمل معلوم . ولعل الهنود الحمر قد أخذوا ذلك عن جماعة الذئاب إذ تلتقى بقطيع من الأنعام ، فتنقسم إلى شراذم تتحين كل شرذمة منها الفرصة المواتية للهجوم على الحيوانات المتخلفة أو المريضة أو الجريحة ، لأنها لا تستطيع أن تنفذ إلى كتلة القطيع نفسه ، ومن الإسراف فى مجهودها أن تتجمع فى بقعة واحدة .

وبعد أن يصدر الرئيس إشارة البدء فى العمل ، تصطف الكتائب كل كتيبة منها على مسافة من الأخرى ، ثم يندفع أفراد الكتيبة الأولى نحو قسم من القطيع فيجلبون عليه بخيلهم ، ويثيرونه بأصوات صاخبة مزعجة ، ويعمدون إلى الآتى التى تقوده فيفصلونها هى وأتباعها عن القطيع ، ويستفزون القسم المنفصل ،

---

(١) الخوار من صوت البقر والغنم والظباء وما إليها ، والغمغمة أصوات الثيران عند الذعر ، والصعاق خوارها الشديد .

ويعملون على تطويقه من بعض نواحيه ، ويدفعونه إلى حيث تقف أفراد الكتيبة الثانية ، وهذه تزيد فى إقصائه عن القطيع وفى تطويقه ... وهكذا حتى ينفصل عنه كل الانفصال ، ويصبح مطوقا من جميع جهاته بالرجال . فيتراكم بعضه على بعض ، وتضطرب حركاته ، ويكثر شمه لمواطىء أقدامه ، ويعلو خواره وصماقه ، ويحفر الأرض بأظلافه حفراً شـــديداً ، فتنعقد فى الجو سحب كثيفة من الغبار ، وينغمر الرجال والأنعام فى ظلمات بعضها فوق بعض . وفى أثناء ذلك يكون كل فارس قد اختار لنفسه قنيصا ، فيركض فرسه نحوه حتى يحاذيه ، ويضعه على يساره ، ثم يسدد إليه سهمه فيرديه جريحا أو قتيلا .

وتنطلق هذه السهام من أيد حاذقة صناع ، فلا تخطىء الرمية ، ولا تنحرف عن الهدف ، وتندفع بقوة منقطعة النظير ، حتى إن بعضها ليمرق من الحيوان مروقا ، ويستقر فيما يصادفه بعد ذلك . وقد جرت العادة أن يضرب الحيوان بين كتفيه ، فيترنح بضع خطوات ثم يسقط مثخنا بجراحه أو جثة هامدة .

وحينئذ يغادره الصائد بدون أن يحاول الإجهاز عليه إن كان لا يزال حيا حتى لا يضيع عليه لوقت ، ويتعقب قنصيا آخر ثم ثالثا ورابعا .. حتى ينتهى الصيد ، فيعود كل صائد إلى ما أصابه من هذه الحيوانات فى مختلف جولاته — ويعرفها بالسهام المنغمسة فى كل منها ، لأن كل سهم منها كان يحمل سمة صاحبه — فيجهز على ما لا يزال حيا من بينها ، ويعد رءوسها ، ويزهو على أقرانه إن كان قد أصاب منها عدداً كبيراً .

وقد يستخدم الصائد أحيانا حربته أو خنجره . فإذا اختار الحربة جعل الحيوان على يساره وغرسها فى ظهره وهو على صهوة جواده . وإذا اختار الخنجر تابع قنيصه حتى يقرب منه ، فيقفز من ظهر جواده ، ويستقر على ظهر الحيوان نفسه ، ويغمد خنجره بين كتفيه .

ولم تكن عمليات الصيد لتخلو من الخطر ؛ بل كانت تنتهى أحيانا بحوادث أليمة تزهق فيها بعض النفوس . فإذا أنبت بعض أفراد القافلة مثلا عن زملائه وحاول إثارة قسم من هذه الحيوانات لفصلها عن قطيعها ، ولكنه لم يجد وراءه من يسلمها له ، ولم ينجح فى تحويلها عن اتجاهها ، وضاق وقته أو قصرت حيلته عن البعد عن طريقها ، كان مصيره الموت البطىء هو وجواده تحت أقدام القطيع .

وكانت القافلة تعمل جهدها على تقصير زمن الصيد والاكتفاء بالضرورى منه ، كما كانت تحرص على حصر غنائمها فى حيز ضيق وعدم بعثرتها هنا وهناك . ولذلك كان رجالها يحيطون بالقسم المنفصل عن القطيع ، ويضغطونه فى أضيق دائرة ممكنة ، ويعوقون سيره ، ويسدون عليه المنافذ ، فإذا أفلت على الرغم من ذلك بعض الأنعام من النطاق المضروب ، تركوها وشأنها ، ولم يجشموا أنفسهم مشقة تعقبها ، حتى لا تتسع عليهم حلبة الصيد وتتبعثر الغنائم .

وكان عمل الرجال يقف عند هذا الحد . أما ماعدا ذلك من العمليات الشاقة التى كانت تجرى على لحوم هذه الحيوانات وجلودها لإعدادها لحاجات الغذاء والكساء والمسكن والأثاث والماعون والسلاح وسائر مرافق الحياة ، فكان يقع على كاهل الجنس الضعيف . وهكذا كانت الأعمال مقسمة بين الجنسين قسمة غريبة ضيزى .

— ٣ —

مظاهر غريبة من الفروسية والقتال عند البدائيين

كان القتال فى نظر كثير من البدائيين ، وخاصة الهنود الحمر ، ضربا من ضروب الصيد كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق . ولذلك لم تكن مناهجه العادية

ومناهج خداعه ، لتختلف عن نظائرها فى الصيد إلا إختلافا يسيراً . فكما كان الهنود يبحثون فى الصيد عن القطيع مهتدين بآثار أقدامه فى الأرض ، كانوا كذلك فى الحرب يعتمدون فى الغالب على اقتفاء الآثار فى البحث عن عدو مهاجر يقاتلونه . وكما كانوا فى المناهج المادية للصيد يهجمون على الحيوان سافرين ويشتبكون معه أحيانا فى صراع ينتصر فيه أكثر الفريقين جرأة ومهارة ، كانوا كذلك فى المناهج المادية للقتال يغيرون على عدوهم بعد أن ينذروه بعلامات تشبه إعلان الحرب حتى يتأهب للقائهم ويعد لهم ما يستطيع إعداده من قوة ومن رباط الخيل . وكما كانوا فى مناهج الخداع فى الصيد يخفون أنفسهم عن الحيوان أو عن القطيع أو يظهرون أمامه بمظهر مصطنع لا يوجس خيفة منه حتى يتمكنوا من مهاجمته أو أخذه على غرة ، كانوا كذلك فى مناهج الخداع فى القتال يلبسون على العدو بإخفاء أنفسهم أو ظهورهم فى غير مظهرهم الطبيعى حتى يتمكنوا من مفاجأته ويحولوا بينه وبين التأهب للقتال .

ولما كانت حياة معظمهم حياة بداوة ونجعة وتنقل فى طلب الكلأ والصيد كانت معظم حروبهم تحدث بين عشائر متنقلة فى طريق رحلتها أو فى أثناء استقرارها الموقوت . فكانت العشيرة قبل أن تنفر للقتال ترسل بعض روادها للوقوف على اتجاهات العشائر الأخرى فى سيرها ، وكان يهديهم إلى ذلك اقتفاء الآثار التى ترسمها فى الأرض أقدام القوافل المهاجرة .

وقد بلغ قافتهم[1] فى فنهم هذا مبلغاً كبيراً من الألمعية والحذق ، حتى إنهم كانوا يعرفون بفضل هذه الآثار اسم العشيرة المهاجرة وعدد أفرادها ونوعهم ووجهتهم وتاريخ مرورهم من هذا السبيل وأقصر طريق للحاق بهم ... وهلم جرا.

وبعد أن يستقر الرأى على غزو عشيرة ما يعكف أفراد العشيرة المهاجمة ، قبل أن ينفروا للقتال على بعض طقوس واستعدادات تقتضيها تقاليدهم فى هذه

---

(١) القائف الذى يعرف الآثار والجمع القافة ويسمى الفن نفسه القيافة .

المناسبات . فيدق الرؤساء طبول الحرب ، ويطلقون فى الهواء دخانا خاصا ، فيجتمع المقاتلون بعد أن يكون كل منهم قد أعد عدته ، لحمل أسلحته وذخائره ولبس ملابس القتال وقلنسوته المزينة بريش النسور ، وغطى وجهه بقناع الحرب . وكان هذا القناع عند هنود الوديان والسهول يغطى جميع أجزاء الوجه ماعدا الجبهة والعينين ، ويدهن بصبغة حمراء قانية . وكان بعض عشائر الهنود الحمر يدهنون وجوههم نفسها بهذه الصبغة . وإلى هذا يرجع السبب فى وصفهم «بالحمر» ، مع أن لون بشرتهم الطبيعية لم يكن من الحمرة فى شىء . وكانوا يدهنون كذلك الخيل التى سيستخدمونها فى الحرب بألوان معينة وينقشون على وجوهها وصفحاتها نقوشا خاصة .

ثم يأخذ كل منهم مكانه فى حلقة الرقص الحربى . وكان هذا الرقص على أنواع كثيرة تختلف باختلاف العشائر . فعنـــد عشائر السيو مثلا Les Sioux كان المحاربون يلتفون حول موقد ملتهب الجمر ، وينحنون نحوه ثم ينتصبون ، كما يفعل بعض رجال الطرق الصوفية فى أذكارهم فى العصر الحاضر ، مرددين فى أثناء ذلك هذه العبارة : «إن النار مجردة من الرحمة والشفقة . وسنكون نحن مثلها حيال أعدائنا» . ثم يقبض رئيس العشيرة قبضة من التراب ويمسح بها خدود رجاله مبتهلا إلى الأصل الأول الذى انحدرت منه العشيرة — وهو الجاموس الوحشى — أن يجعل التوفيق رائدهم فى حربهم هذه . وفى تعفير وجوههم بالتراب تمثيل لحالة الجاموس الوحشى عند محاولته الهجوم على العدو ، إذ يحفر حينئذ الأرض بأظلافه وقرونه ويثير نقعها على وجهه ثم ينقض انقضاض الصاعقة على خصيمه .

وبعد أن يفرغوا من هذه الطقوس يتناول كل محارب من مخلاته المدلاة على جنبه قطعة من الفحم ، ويخط بها على جسمه علاماته الخاصة به ، وفق ماتعارفت عليه عشيرته فى طرق التمييز بين الأفراد .

ثم يتجمعون مرة ثانية فى حلقة كبيرة يدورون حول محيطها فى حركات انجذاب عنيفة على نحو مايحدث من بعض أرباب الطرق الصوفية فى حلقات الذكر

مرتلين فى أثناء ذلك غناءهم الدينى المقدس بنغمه الخاص به .

ثم يصدر الرئيس أمره بالنفير ، فيتحرك الجيش شطر العشيرة التى استقر الرأى على مهاجمتها . وتعطى أوامر الرئيس وإشارات تنظيمه لسير الجيش بصفارة كانوا يتخذونها من عظام الديك الوحشى وخاصة عظام فخذه . فكان الرئيس يحمل هذه الصفارة مدلاة على صدره ، وينفخ فيها نفخات خاصة ترمز إلى أوامر وتنظيمات : فكان لها مثلا صوت خاص للهجوم ؛ وصوت آخر للانسحاب ... وهلم جرا . وكانوا أحيانا يستخدمون كذلك لهذه الأغراض الأعلام وأغصان الأشجار : فنشر العلم الأحمر كان يعنى الأمر بالشروع فى القتال ؛ ونشر العلم الأبيض أو التلويح بغصن أخضر كان يشير إلى طلب الهدنة أو وقف القتال .

وكانوا ينظرون إلى طلب الهدنة أو وقف القتال بهذه الوسيلة إلى أمر مقدس لا يجوز رفضه أو الخروج عليه . وقد تركت هذه التقاليد البدائية رواسب فى جميع الأمم الإنسانية .

وكانوا فى أثناء اشتباكهم يصيحون صيحة الحرب ، وهى صيحة حادة مؤثرة تستغرق وقتا طويلا وتصحب بدقات سريعة متتابعة تنبعث عن التصفيق بالأكف أو تحريك الأصابع على الشفتين . ولم يكن فى جرس الصيحة نفسها ما يزعج أو يخيف ، ولكن ارتباطها فى أذهان العشيرة المغزوة بأعمال الحرب واستدعاءها فى أذهان أفرادها لكل ما يصحبها من تقتيل وإبادة وتدمير ، كل ذلك كان يذيب القلوب من هولها فرقاً ويطير بالنفوس شعاعا .

وأما طرق الكر والهجوم والالتحام فلم يكن فيها ما يختلف كثيراً عن نظائره فى الأمم المتحضرة أيام أن كان الاعتماد فى الحروب على الخيول وفنون الفروسية .

وأما فيما يتعلق بأسلحة الحرب فكانوا يستخدمون منها كل ما يصلح للقضاء على الخصم أو أسره إن لم يمكن قتله .

وكان بعض العشائر يستخدم فى القتال وسائل مراوغة وخداع . لمفاجأة العدو وأخذه على حين غرة منه . وكانت هذه الوسائل تتمثل فى محاولة العشيرة المهاجمة أن تلبس على خصمها بإخفاء رجالها أو إظهارهم فى غير مظهرهم الآدمى كما كانوا يفعلون فى الصيد .

فمن ذلك مثلا أن عشائر الأباش كان يتجمع محاربوها أحيانا فى أطراف غابة قريبة من مساكن العشيرة التى يبغون قتالها . وفى يد كل منهم فرع طويل يختفى وراءه ويتقدم به فى حركة وئيدة متقطعة يخيل للناظر إليها أنها حركة أغصان ثابتة يداعبها الهواء .

ومن ذلك أيضاً ما كانت تلجأ إليه أحيانا عشائر الكومانش لمفاجأة أعدائهم بالهجوم . فقد كانوا يستخدمون خيولا غير مسرجة ويمد كل منهم جسمه بجانب صفحة فرسه ، مطوقا رقبته بذراعيه ومعتمداً باحدى قدميه على مؤخرة ظهره ، وفى منطقته قوسه وجعبة سهامه ، ثم يطلقون هذه الخيول شطر العشيرة التى يريدون غزوها ، فيخيل لمن يراها على هذه الصورة وليس على ظهورها رجال ولا سروج أنها قطيع من الخيول الوحشية ترتع وحدها فى السهول ، ويظلون كذلك حتى يشرفوا على منازل أعدائهم ، فيستديرون مرة واحدة من صفحات خيولهم إلى ظهورها ، كأنهم مردة من الجن قد انشقت عنهم الأرض ، أو أشباح من العالم العلوى قد قذفتهم السماء .

ومن ذلك أيضا ما كان يلجأ إليه أحيانا عشائر الكومانش نفسها فى الغارات التى كانت تشنها على بعض العشائر لمجرد الاستيلاء على ما تملكه من خيول . فقد كانوا يعتمدن فى غزواتهم هذه على قوة المفاجأة وسعة الحيلة ، وينتفعون فيها بما كان لديهم من خبرة منقطعة النظير عن طبائع الخيل وغرائزها ومناهجها فى مختلف شئون حياتها .

فكانوا ينتظرون حتى ينقضى شطر كبير من الليل ، ويكون أفراد العشيرة المقصودة فى سبات عميق ، فيمتطى كل محارب منهم صهوة جواده المختار ، وفى يده حربته وهراوته وجلد خشن مدبوغ من جلود الجاموس الوحشى . ويتم هذا كله فى حركة سريعة ماهرة ، فلا يسمع لهم ركز ، ولا تحس لهم نبأة . وما هى إلا فينة كلمح البصر أو هى أقرب حتى يكونوا فى القرية التى يبغون سلبها ، فيجوسون خلال ديارها ، وينتشرون فى مختلف دروبها ، وهم يصيحون صيحات مزعجة ، ويقعقعون بالشنان التى يحملونها ، ويحكون أطرافها بعضها ببعض ، فينبعث من احتكاكها دوى كدوى الرعد ، ويقوضون الخيام على رؤس النائمين تحتها ، ويبعثرون أمتعتهم وأثاثهم فى مختلف الأنحاء . فتطير نفوس هؤلاء شعاعاً ، ويتملكهم الهلع والرعب ، ويتفرقون شذر مذر ، ويجمح كل منهم طالباً لنفسه النجاة ، لا يلتفت وراءه ، ولا يلوى على أحد أيا كان ، حتى لتذهل المرضعة عما أرضعت ، و« يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » . — وتنقضى على هذه الحال فترة طويلة يعجز فى أثنائها كماة القوم ورؤساؤهم وشيوخهم عن تهدئة فزعهم ولم شملهم ، ولكنهم لا يزالون بهم حتى يفيقوا من ذهولهم ، ويفرخ روعهم ، وتنزل عليهم السكينة ، وتنبعث فى نفوسهم الحمية ، وتعاودهم نعرة العصبية ونزعة الدفاع عن الأهل والعشيرة ، فيتجمعون ويتهيأون للاشتباك مع الغزاة ، ويتسلحون بما يتاح لهم جمعه من هنا وهناك . ولكنهم يبحثون عن العدو فلا يجدون أثرا له ، ويتحسسون من أنفسهم وأهليهم فإذا هم كما كانوا قبل هذا الطائف الغريب ، لم ينقص منهم فرد ، ولم يصب منهم أحد بأذى بليغ ، ويتلمسون أثاثهم وأمتعتهم فيجدونها كاملة لم يأخذ العدو منها فتيلا ، وإن بعثرها فى مختلف الأنحاء . ولكنهم يتفقدون خيولهم فيتبين لهم من آثارها أنها قد تملكها الذعر ، فحطمت قيودها ، وانطلقت هائمة على وجوهها ، بدون أن يحاول أحد أن يعترض لها سبيلا . فيخيل إليهم أن نفراً من الجن قد اتخذوا فى هذه الليلة من دروب قريتهم ملاعب ، ومن متاعهم دمى وكرات ! !

وفى الحق أن الكومانش ما كان يهمهم من الجلبة التى أحدثوها إلا أن تحطم الخيول قيودها وتنطلق هائمة على وجوهها ، ليتمكنوا من الإستيلاء عليها بدون جهد ولا عناء ولا اشتباك فى حروب . وذلك أنهم فى ضوء معلوماتهم الدقيقة عن طبائع الخيل وغرائزها ومناهجها فى مختلف شئونها ، كانوا يعرفون الطرق التى ستسلكها هذه الخيول ومواطن تجمعها ، ويعلمون مدى طاقتها فى العدو ، ومتى ينال منها الإعياء حتى لا تقوى على حركة ، ويعملون على مفاجأتها فى فترة عجزها هذا . فيجمعونها غنيمة سهلة ثمينة ، ويؤوبون بها إلى ديارهم .

* * *

وكانت القاعدة الغالبة عند معظم عشائر الهنود الحمر أن يعاملوا أسرى الحرب معاملة إنسانية رفيقة ؛ بل إننا لا نكاد نجد استثناء صارخا لهذه القاعدة إلا عند عشائر الأپاش . فقد جرت عادة هؤلاء أن يقطعوا أصابع أسراهم وهم أحياء ، ويتخذوا من هذه الأصابع أساور وقلائد يتحلى بها الرجال للزينة والزهو ولتكون دليلا على شجاعتهم وكثرة من وقع فى أيديهم وأذلوه من أسارى الحرب . وكانوا بجانب ذلك يسومون أسراهم صنوفا أخرى كثيرة من العذاب . وقد بلغوا فى تفننهم وقوة ابتكارهم لألوان التعذيب التى كانوا يصبونها على الأسرى درجة منقطعة النظير تشهد بخصب خيالهم وسعة حيلتهم ، أو بالأحرى بخصب خيال نسائهم وسعة حيلتهن ، فقد كان يعهد بذلك للنساء ، وكن يؤدينه على أعنف وجه ، وأشده قسوة ، وأدناه إلى طبائع التوحش والافتراس .

ولم يكن الباعث الأصلى على ذلك مجرد التلذذ برؤية الدم المراق ، أو بالتعذيب والتمثيل بأجسام الناس ، وإنما كان الباعث عليه أن ينتزع من الأسير ، من شدة ما يسامه من الخسف ، اعتراف بضعفه وقوة قاهريه . وذلك أن قهر الأسير ما كان يتحقق فى نظرهم إلا إذا ظهرت عليه الذلة والمسكنة ، فاعترف بضعفه ، وعدم قدرته على احتمال ما يحتمله الكماة من الرجال ، أو طلب الرحمة من آسريه . غير أنه كان من المتعذر فى الغالب أن ينتزع من الأسير

اعتراف من هذا القبيل مهما بولغ فى تعذيبه . فقد وصل الهنود الحمر فى اعتزازهم بأنفسهم وعشائرهم ، وترفعهم عند الظهور بمظهر الذلة والعجز ، وقدرتهم على احتمال الآلام ، إلى درجة لم يكد يصل إلى مثلها أو ما يقرب منها أى شعب آخر من شعوب الأرض . ولعل صنوف العذاب التى كان لزاما أن يذوقها كل واحد منهم مختاراً فى أثناء مرحلة التعميد Initiation والتى أشرنا إليها فيما سبق هى التى كان لها الفضل فى بث هذه النزعة فى نفوسهم ، وفى تدريبهم على قوة الاحتمال ، وفى مبلغ ما وصلوا إليه فى الاستخفاف بآلام الجسم والاستهانة بما يصيبه من نكال . فقد كان الأسير يشد وثاقه إلى سارية ، وتصب عليه أسواط العذاب من كل صنف ، ويأتيه الموت من كل مكان ، بدون أن يفتر لسانه عن ترديد أغنيات حماسية خاصة بهذه المناسبات تسمى « أغانى الموت » ، يعدد فيها مناقبة ، وما أثر عنه فى ميدان الوغى من إقدام وشجاعة ، ويزهو أنه لم ير بعد من هو أقوى منه فى ميادين الحرب أو أشد لها مراسا ، ويستخف بآسريه وبما يسومونه إياه من عذاب ، ويوجه إليهم من لاذع الإهانة ما يثير الجماد . وكلما زادوه تنكيلا زاده هذا إمعانا فى زهوه وتحقيره إياهم . فينتهى بهم الأمر إلى اليأس من أن ينتزعوا منه ما كانوا يريدون انتزاعه من اعتراف صريح بالضعف . وحينئذ يقنعون بما دون القليل ، ويودون لو صدر عنه اعتراف ضمنى بذلك فى تأوه أو رعشة ألم . وحتى هذا الاعتراف الضمنى ما كانوا يستطيعون فى الغالب سبيلا إلى الحصول عليه . فقد كان الأسير يقطع إربا إربا بدون أن يفتر لسانه عن التغنى بشجاعته والتهكم بأعدائه . فتتجه جهودهم كلها حينئذ إلى العمل على إسكاته بأية وسيلة . وحتى هذه الغاية السلبية ما كانوا ليستطيعوا فى الغالب سبيلا إلى تحقيقها إلا إذا انتزعوا لسان الأسير انتزاعا من بين فكيه !!

فلم يكن الباعث لهم إذن على تعذيب الأسير مجرد الرغبة فى التعذيب أو إرضاء ميول دموية ، وإنما كان ذلك نتيجة لازمة لأمرين . أحدهما شدة حرص المنتصر

على أن يعترف المقهور بقهره فى صورة ما ؛ وثانيهما شدة عناد المقهور وتجاهله لما حدث ولما يجرى عليه وإمعانه فى إنكار الهزيمة .

وقد زاد من اندفاعهم فى هذا السبيل علمهم أنهم سيلاقون المصير نفسه إذا وقعوا أسارى فى أيدى أعدائهم ، وأن هؤلاء لن يدخروا وسعا فى تعذيبهم والانتقام منهم ، فكانوا يعملون ، قبل أن يلاقيهم هذا المصير المهين ، على أن ينعموا بأقصى ما يمكنهم أن ينعموا به من لذة النصر والارتياح إلى القهر وإذلال الأعداء .

* * *

وقد اشتهر الهنود الحمر بعادة غريبة فى التمثيل بالأسرى وهى انتزاع دواراتهم بجلدها وشعرها . وذلك أنهم كانوا يعمدون إلى دائرة فى نحو مساحة الكف فى قمة الرأس حيث يغزر الشعر فيفصلون محيطها بمشرط عن بقية جلد الرأس ثم يمسكون بخصلة شعرها ويجذبونها جذبة قوية فتنفصل مع جلدها عن الرأس . وكان يكتفى أحيانا بانتزاع خصلة الشعر وحدها إذا لم يستطع انتزاع الجلد أو لم يتسع الوقت لذلك .

وما كان يجوز أن تجرى هذه العملية إلا على عدو ، أى شخص من غير أفراد القبيلة . فإذا اتفق أن أسر الهندى فردا من قبيلته أو قتله فإن التقاليد تحرم عليه تحريما باتا أن ينتزع دوارته ، وتعد ذلك جرماً كبيراً يخدش الشرف والكرامة ، ويعرض مقترفه لمسئولية خطيرة .

وكان الغالب أن تجرى هذه العملية على العدو بعد موته ، أو إذا ظن أو فرض أنه مات . وإذا أجريت عليه وهو حى لم تكن فى جميع الأحوال لتؤدى إلى موته . فالجرح نفسه لم يكن خطيرا ، ولم يكن ليستغرق من جلدة الرأس إلا حيزا ضيقا لا يكاد يتجاوز فى مساحته باطن الكف . ولذلك كان يوجد بين بدو السهول وساكنى القرى كثير ممن انتزعت دواراتهم ثم التأم

جرحهم وظلوا أحياء أشداء . وكان بعضهم لا يستنكف أن يظهر آثار جرحه ، على حين أن معظمهم كان يحرص على إخفائه تحت قلنسوته أو عقدة منديله خجلا من مظهر الهزيمة الذى يرمز إليها .

وكانت العشيرة تعنى بجمع ما انتزعته من رؤوس أعدائها من دوارات وتتخذ منه مادة للتفاخر والزهو ، وآية على شجاعة رجالها وجرأتهم فى ميادين الوغى ، وكثرة من وقع فى أيديهم وأذلوه من أسارى الحرب . ولذلك كانوا يحرصون على إظهار هذه الدوارات وعرضها ، فيحملونها بأيديهم كالمذبات ، ويعلقونها فى أعناق خيولهم وفى أسلحتهم وأرديتهم وسراويلهم وأمتعتهم ، ويزينون بها خيامهم ، ويرفعونها كالأعلام فى كثير من المناسبات فى وجهات منازلهم وعلى جوانبها وقممها وفى رءوس أعمدتها ، ويلصقونها فى طوق متخذ من غصن أخضر ويثبتون الطوق فى نهاية عصا طويلة يحملونها معهم أو يقيمونها كالنصب فى أفنية ديارهم .

ولم تكن هذه العادة مقصورة على الهنود الحمر بل كانت متبعة لدى شعوب أخرى فى الدنيا القديمة نفسها . فقد ذكر هيرودوت أن السيثيين « Scythes » — وهم شعب بدوى همجى كان يتنقل فى العصور القديمة فى المناطق الواقعة فى الشمال الشرقى من أوروبا والشمال الغربى من آسيا — كانوا يجرونها على أسرى الحرب . ويظهر أن هذا التقليد أو ما يشبهه كان متبعا عند بعض الشعوب السامية القديمة وأن رواسب منه قد بقيت عند العرب فى الجاهلية . فقد كانوا يجزون ناصية الأسير إذا منوا عليه ، أى أطلقوا سراحه بدون فداء . وفى هذا يقول حسان بن ثابت :

كم من أسير فككناه بلا ثمن　　وجز ناصية كنا مواليها

ويظهر أن الهنود الحمر كان يدفعهم إلى ذلك فى الأصل بعض عقائد تتصل بعالم الأرواح والعالم العلوى . فقد كان الشعر فى نظرهم ، وخاصة شعر الدوارة ، هو رمز الروح ومقرها . فكانوا يظنون أن من تجرى عليه هذه العملية تصبح

روحه نفسها أسيرة فى أيديهم فلاتستطيع أن تغادر مكمنها وتثأر لنفسها ، ولا أن تجلب أذى الأحياء من الناس ، ولا يستطيع الروح الأكبر Grand Esprit أن يرفعها إلى عليين فى جنات الصيد المظم Paradi des Grandes Chasses فتظل فى العالم السفلى أبد الآبدين.

بيد أن انتزاع الدورات لم يكن منتشرا ، قبل دخول الأوربيين هذه القارة ، إلا عند بعض عشائر فى الشمال الشرقى ، وخاصة عشائر الأيروكيين Les Iroqois الذين يعدهم بعض الباحثين أقدم من ظهر فيهم هذا التقليد الوحشى من عشائر الهنود الحمر . أما العشائر التى كانت تسكن السهول ، وهى معظم عشائر الهنود الحمر ، كالسيو والشيين والكومانش ، فكانت إلى ذلك الحين تجهل هذا التقليد كل الجهل .

ولكن هذه العادة لم تلبث . بعد دخول الأوربيين هذه القارة ، أن انتشرت انتشارا كبيرا عند جميع عشائر الهنود الحمر . ويقع الوزر فى انتشارها هذا على الأوربيين أنفسهم وما جلبته مدنيتهم على هذه البلاد وأهلها من مصائب وأرزاء . فقد استحوذ على نفوس كثير من الأوربيين فى ذلك العصر هواية غريبة لجمع هذه الدوارات ، كما يهوى كثير من الناس فى العصر الحاضر جمع طوابع البريد . فانطلق هؤلاء ينقبون عنها فى مختلف أرجاء القارة ، ويتجشمون فى سبيلها المشاق والأسفار ، ويتنافسون فى اقتنائها ، ويتسابقون فى الإكثار من عددها ونوعها ، ويبتاعونها من البدائيين بأغلى الأثمان . ونشأت فى أثناء ذلك طبقة من التجار والوسطاء بين المنتجين والمستهلكين ، بين صائدى الدوارات من البدائيين وهواة جمعها من الأوربيين . وأخذت هذه الطبقة تعمل جاهدة على ترويج بضاعتها ، وإغراء المنتجين بمختلف وسائل الإغراء على زيادة إنتاجهم ، وحث المستهلكين على الإمعان فى هواياتهم. فأصبح من جراء هذا كله للدورات سوق زاخرة تسيل فيها البضاعة منحدرة من مختلف المنابع ، ويشهد منافعها عدة طوائف ، وتهوى إليها أفئدة كثير من الناس . ووجد البدائيون فى هذه

البضاعة السهلة الإنتاج مجالا واسعا للربح وجمع الأموال ، فأخذت هذه العادة تنتقل من عشيرة إلى عشيرة ، وتسرى من منطقة إلى أخرى ، حتى عمت جميع أنحاء القارة . ولم يكد يبزغ القرن السابع عشر حتى كان « صيد » الدورات المهنة المحببة لجميع عشائر الهنود الحمر .

فانتشار هذه العادة لديهم ، واندفاعهم فى تيارها هذا الاندفاع ، كل ذلك كان مرجعه إذاً إلى الأوربيين أنفسهم ، وكان قائما على الأسباب الاقتصادية نفسها التى دفعتهم إلى المبالغة فى صيد الجاموس الوحشى لتقديم جلوده وألسنته إلى الشركات التى ألفها البيض للاشراف على هذه التجارة وتصديرها عقب استعمارهم لهذه البلاد . وإلى هذا العامل الاقتصادى الذى يقع وزره على الأوربيين وحدهم انضم فيما بعد عوامل الزهو والتفاخر والاعتبارات الدينية التى أشرنا إليها فى صدر هذه الفقرة ، وتضافر كل أولئك على رواج هذه السوق وحرص الهنود الحمر على تزويدها بما تحتاج إليه .

ولكن مهما يكن من شىء بصدد مسئولية الأوربيين عن انتشار هذه العادة عند الهنود الحمر ، فإن اندفاع هؤلاء فى هذا التيار لدليل على تأصل العادات الدموية وغرائز القسوة والسفك فى طباعهم ، واستخفافهم بالنفس الإنسانية ونظرهم إلى الأعداء نظرتهم إلى أنعام الصيد .

أهم مراجع هذا الفصل

الهنود الحمر . : الدكتور على عبد الواحد وافى

Tréveni ı et Coze ; Mœurs et Histoire des Peaux Rouges

الفصل الثاني

لغة الإشارة عند البدائيين

تنقسم الإشارات الحسية التي تستخدم في الفصيلة الإنسانية للتفاهم وبقصد الدلالة إلى قسمين :

(أحدهما) إشارات مساعدة ونائبة ، أي تساعد لغة الكلام وتنوب عنها في حالات خاصة أو لضرورة ما : فمن هذه الطائفة الإشارات البحرية وهي التي يستخدمها عن بعد بحارة السفينة مع بحارة سفينة أخرى(1) ؛ ومنها إشارات الصيد وهي التي يستخدمها الصيادون بعضهم مع بعض عن بعد حتى لا يسمع صوتهم الحيوان المطارد ؛ ومنها الحركات اليدوية والجسمية التي يستخدمها الصم البكم للتعبير عما يجول بخواطرهم ؛ ومنها الإشارات التي يلجأ إليها الفرد أحيانا للتعبير إذا كان المخاطب لا يفهم لغته ؛ والتي جرت العادة في بعض الأمم البدائية أن يستخدمها أفراد العشائر المختلفة اللهجات بعضهم مع بعض(2) ؛ ومنها

---

(1) هذه الإشارات دولية معروفة لجميع البحارة ، وتدرس في مدارس البحرية .

(2) عثر علماء الاتنوجرافيا على هذه الظاهرة عند كثير من قبائل السكان الأصليين لأمريكا واستراليا ، وعند بعض العشائر الافريقية . وقد روى الأستاذ كوهل **Kohl** أنه إذا التقى أحد الهنود الحمر (السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) بآخر من غير عشيرته مختلف عنه في لغته ، فإنهما يلجآن في تعبيرهما إلى لغة الإشارات التي تعتبر عند هذه العشائر بمثابة لغة دولية . وقد مهر الهنود الحمر في هذه اللغة أيما مهارة . ففي إمكان المتخاطبين أن يظلا يوما كاملا يتحدثان عن طريق الإشارات باليد والأصابع والرجلين ، وأن يقص كل منهما على الآخر كل ما يود قصه عليه . — انظر ليفي برول : « الوظائف العقلية في الأمم الأولية » ١٧٨ وتوابعها .

Levy Bruhl : Fonctions m.ᵗᵃˡᵉˢ tales... ect.

الإشارات التى تستخدم فى بعض الشعوب فى حالات الصيام الدينى عن الكلام[1]؛ ومنها الحركات التى يستعين بها فى أثناء حديثهم أهل اللغات الساذجة الناقصة لتكملة ما ينقص تعبيرهم وما يعوزهم من دلالة[2]؛ ومنها الحركات التى تصحب حديثنا نحن لتوكيد المعانى أو لتمثيل الحقائق أو لزيادة التوضيح ؛ والتى نستخدمها وحدها للدلالة على الإيجاب والنفى والاستحسان وما إلى ذلك ، كالإيماء بالرأس للتعبير عن القبول ، وتحريك السبابة حركة مستعرضة للتعبير عن الرفض أو النفى ، ومد الشفتين ووضع السبابة عليها الأمر بالسكوت ... وهلم جرا .

(وثانيهما) إشارات أصيلة عامة ، وهى التى تتكون منها لغة كاملة مستقلة تستخدم وحدها فى جميع الشئون والظروف . وقد استخدم هذا النوع من اللغات عند بعض الجماعات الإنسانية ولا يزال مستعملا فى بعض العشائر .

فقد عثر فى الأمم البدائية على جماعات كثيرة لا تكاد تستخدم فى تعبيرها غير الإشارات اليدوية والجسمية . ومن هؤلاء بعض قبائل السكان الأصليين لأمريكا واستراليا وبعض العشائر بافريقيا الوسطى . ويطلق على هذا الضرب

---

(١) يوجد الصيام الدينى عن الكلام عند كثير من الأمم البدائية وخاصة عند سكان استراليا وأمريكا . فقد ذكر الأستاذان سبنسر وجيلين فى كتابهما عن سكان أستراليا الوسطى حالات كثيرة من هذا القبيل ، منها أن المتوفى عنها زوجها يجب عليها أن تظل مدة طويلة تبلغ أحيانا عاما كاملا صائمة عن الكلام . — ويظهر أن شيئا من هذا كان موجودا فى ديانة اليهود ، بدليل قوله تعالى على لسان مريم : « إنى نذرت للرحمن صوما ، فلن أكلم اليوم إنسيا .. فأشارت إليه ... الخ » . (انظر صفحة ٦٠ من الجزء الأول من هذا الكتاب).

(٢) لوحظ هذا فى كثير من الأمم البدائية . فقد روى عن البوشيمان Boschimans (عشائر بدائية تسكن أفريقيا الجنوبية) أنهم إذا أرادوا المحادثة ليلا يضطرون إلى إشعال النار ليتمكنوا من رؤية الإشارات اليدوية التى تصحب كلامهم فتكمل ناقصه وتحدد مدلولاته — انظر ريبو : « تطور المعانى الكلية » ص ٧٨ وتوابعها :

Ribot : Evolution des Idées... etc.

من التعبير، لغة الإشارات ، أو ، الإشارات التحليلية Gestes Analytiques[1].
وقد عنى بدراسته عدد كبير من علماء الإتنوجرافيا والاجتماع من أشهرهم الكولونيل مولرى Mollery [2] وتيلور Taylor [3] . ورومان Romanes[4] ولبوك Lubock[5] وسبنسر وجيلين Spencer and Gille [6] ، وليفى برول Levy Bruhl (٧) وريبو Ribot(٨) والدكتور فيشر الألمانى Fischr(٩) وروث Roth (١٠)

وقد صور الدكتور فيشر هذا النوع من اللغات وقربه إلى الأذهان إذ يقول:

---

(١) صاحب هذه التسمية هو العلامة ريبو Ribot (انظر كتابه : « تطور المعانى الكلية ») .

(٢) انظر بحثه بالانجليزية : « لغة الاشارات بين هنود أمريكا الشمالية » . وقد ظهر في تقرير مكتب الانتولوجيا بواشنطن عام ١٨٨١ .
Sign - Language among the North American Indians

(٣) انظر كتابه بالانجليزية : « تاريخ النوع الإنسانى فى عصوره الأولى»
Early History of Mankind

(٤) انظر كتابه بالانجليزية . « التطور العقلى فى الفصيلة الإنسانية » .
Mental Evolution In Man

(٥) انظر كتابه بالانجليزية : «أصول المدنية» The Origin of Civilization

(٦) انظر كتابيهما بالانجليزية : « العشائر الأصلية باستراليا الوسطى » ، « العشائر الشمالية باستراليا الوسطى » (صفحة ٣٦ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

(٧) انظر كتابه بالفرنسية : « الوظائف العقلية عند الأمم الأولية » صفحات ١٧٥ — ٢٠٤ (صفحة ٣٦ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

(٨) انظر كتابه بالفرنسية : « تطور المعانى الكلية » صفحات ٥٨ — ٦٤ .

(٩) عنى الدكتور فيشر فى بحوث كثيرة بدراسة هذا النوع من اللغات عند عشائر افريقيا الوسطى وعند السكان الأصليين لأمريكا .

(١٠) انظر كتابه بالانجليزية : « دراسات اثنولوجية للسكان الأصليين بالقسم الشمالى الغربى بكوينسلندا » .

« إذا التقيت بأحد الهنود الحمر وأردت أن أخاطبه بلغة الإشارات لأسأله هل رأى ست عربات يجرها ثيران ويصحبها ستة سائقين منهم ثلاثة مكسيكيون وثلاثة أمريكيون ويسير معهم واحد ممتط صهوة جواده : فإنى أشير إلى شخصه بيدى للدلالة على كلمة « أنت » ؛ ثم أشير إلى عينيه للدلالة على فعل « الرؤية » ؛ ثم أبسط أصابع يدى اليمنى وسبابة يدى اليسرى للدلالة على عدد «ستة» ؛ ثم أمثل صورة دائرة بالصاق نهايتى السبابتين والإبهامين أحدهما بالآخر ؛ وأمد يدى إلى الأمام وأحركهما كما تتحرك عجلات العربة وهى تسير للدلالة على « العربة » ؛ ثم أضع الكفين ممدودتين بجانب الجبهة ممثلا قرن حيوان للدلالة على « الثور » ؛ ثم أمد ثلاث أصابع من يدى اليسرى وأضع يدى اليمنى تحت شفتى السفلى وأنحدر بها إلى صدرى ممثلا اللحية للدلالة على « ثلاثة مكسيكيين » ؛ ثم أمد مرة ثانية ثلاث أصابع وأمسح جبهتى بيدى من اليمين إلى الشمال ممثلا وجها شاحبا للدلالة على ثلاثة « أمريكيين » ؛ ثم أرفع إصبعا واحداً وأضع بعد ذلك سبابة اليسرى بين سبابة اليمنى ووسطها ممثلا الراكب للدلالة على رجل واحد راكب حصانا » .

وأضاف إلى ذلك أن الوقت الذى يقضيه أحد المتكلمين بهذه اللغة فى أداء هذه الحركات لا يزيد كثيراً عن الوقت الذى يستغرقه تعبيرنا نحن باللغة الكلامية عن هذا المعنى .

وقرر « تيلور » بصدد هذه اللغة ، أن لها قواعد إشارية لربط أجزاء العبارة بعضها ببعض وترتيب عناصرها ؛ وإنها فى مجموعها تكاد تكون متحدة عند جميع الشعوب التى تستخدمها ، فهى من هذه الناحية أشبه شىء بلغة دولية ؛ وأنه يمكن أحيانا التعبير بها عن حقائق دقيقة كعظات وضرب أمثال وقص حكايات ؛ وأنها فى جملتها ومعظم تفاصيلها تشبه لغة الصم والبكم . فقد جمع الكولونول مولرى بين رجل أصم — أبكم وطائفة من الهنود الحمر المتكلمين بلغة الإشارات

فأخذ الأصم الأبكم يقص عليهم بالإشارات قصة طويلة تتعلق بحادث سرقة ، وعقب على هـذه القصة بتعليقات من عنده فلم يفتهم فهم أى حركة من حركاته ، لاتحادها مع حركاتهم اللغوية .

وذهب العلامة ريبو إلى أنها قابلة للإصلاح والتهذيب ، وأنه لو طال استخدام الشعوب الإنسانية لها لسارت فى سبيل الارتقاء ، ولأصابها كثير من أسباب التنقيح تحت تأثير الرقى العقلى ، ومطالب الحياة الاجتماعية ، واتساع حاجات الإنسان ، وأعمال المخترعين والعلماء ... وما إلى ذلك .

غير أنه مهما ينلها من التهذيب فلن تخلو من مثالبها الذاتية . فهى تستأثر باليد فتحول دون القيام بأى عمل آخر فى أثناء التعبير . ويتوقف إدراكها على النظر ، فلا يمكن التعبير بها عن بعد ولا فى الظلام . وهى قائمة على تقليد الأشياء المحسة ، فلا تكاد تقوى على التعبير عن المعانى الكلية أو وصف المشاعر والوجدان . هذا إلى أنها عارية عن الدقة فى كثير من مظاهرها وأنها تقتضى إسرافا كبيراً فى الوقت والمجهود .

أهم مراجع هذا الفصل

مذكورة فى التعليقات

الباب السابع

من غرائب نظم الأسرة

الفصل الأول

نظم التعدد الغريبة في الزواج

— ١ —

وحدة الزوجة مع تعدد الأزواج Polyandrie

وهو نظام يباح بمقتضاه لجماعة من الرجال أن يشتركوا فى زوجة واحدة ، فتكون حقاً مشاعا بينهم . وقد أخذ بهذا النظام عدد غير يسير من الشعوب البدائية والمتحضرة . واختلفت المجتمعات التى أخذت بهذا النظام فى الوضع القانونى للأزواج . فى بعضها يعامل الأزواج جميعا على قدم المساواة فى الحقوق والواجبات والأبوة ؛ فيعتبرون جميعاً آباء لمن تأتى به الزوجة من أولاد . وفى بعضها يعتبر أحد الأزواج زوجاً أصيلا ، فينسب إليه وحده جميع من تأتى به المرأة من أولاد ، ويعتبر من عداه أزواجاً من الدرجة الثانية لهم مساكنة الزوجة فى مقابل بعض واجبات تلقى على عاتقهم أو بغير مقابل ولكن بدون أن ينسب إليهم الأولاد وبدون أن يكون لهم جميع حقوق الزوج الأصيل .

وباستقراء الأشكال التى يتمثل فيها هذا النظام يتبين أن أهمها يرجع إلى ثلاثة أشكال :

(الشكل الأول) أن يكون ثمة رابطة قرابة بين الأزواج المشتركين فى زوجة واحدة ، فلا يباح هذا التعدد إلا إذا توافرت هذه الرابطة وفى الحدود

التى تقرها النظم والتقاليد . — وقد أخذ بهذا الشكل كثير من المجتمعات البدائية والمتحضرة .

ففى كثير من المناطق الواقعة فى جنوب الهند وعلى حدودها الشمالية كان يباح للأخوة أن يشتركوا فى زوجة واحدة . ولا يزال هذا النظام متبعاً إلى الوقت الحاضر لدى كثير من القبائل الجبلية على حدود الهند الشمالية ، وخاصة لدى قبائل «جوانسواريس» . ويبلغ عدد أفراد هذه القبائل الآن نحو مائة ألف . وقد جرت العادة لديهم أن يتزوج الأخ الأكبر فتصبح زوجته زوجة لجميع إخوته . وإذا لم يكن للشاب إخوة فإنه قلما يجد زوجة . وتتمتع المرأة بإخلاص أزواجها جميعا وينسب إليهم جميع الأولاد . ولكل زوج منهم وظيفة ، فيقول الابن مثلا : أبى الذى يدير شئون البيت ؛ وأبى الذى يراعى الأغنام ... وهكذا . وفى أثناء الحكم البريطانى كانت هذه القبائل تعد من القبائل المجرمة المتمردة ، وكان يحال بينها وبين الاتصال بسائر الهنود . ولكن الحكومة الهندية الحاضرة تحاول إخضاعها للقانون العام ، وتبصيرها بمزايا المدنية الحديثة ، وإرغامها على الإقلاع عن نظام تعدد الأزواج . وبجانب الجهود التى تبذلها الحكومة فى هذا السبيل لا يدخر المصلحون الاجتماعيون وسعاً لإنهاض هذه القبائل من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية . وهم يأملون أن يؤدى رفع مستوى المعيشة بين أفرادها إلى إقلاعها عن نظام تعدد الأزواج . ولكن الزعماء السياسيين فى الهند يرون أن هذا النظام متأصل فى نفوس هذه القبائل تأصلا قويا ، وأنه لا بد من انقضاء وقت طويل قبل أن يقلعوا عنه ، وخاصة أنه يقوم على دعائم من المعتقدات الدينية ومن الأساطير المقدسة عند الهنود . فقد جاء فى « الماهابهاراتا Mahabharata » تلك الملحمة الشعرية الشهيرة (وهى تشبه الإلياذة والأوديسيا عند قدماء اليونان) أن أرجونا ، ثالث أبناء الملك باندو الخمسة ، فازبدوبادى ، ابنة ملك بانشالا ، بأن أطلق خمسة أسهم داخل

حلقة ضيقة معلقة فى الهواء . [١] ولكن أمه قالت له : أن كل شىء يجب أن يكون مشاعا . وهكذا اقترن الأخوة الخمسة بالفتاة وعاشوا جميعا فى قصر واحد[٢] .

وفى عشائر الريدى الهندية Reddi جرت العادة أن تتزوج المرأة بين السادسة عشرة والعشرين من عمرها بطفل فى سن الخامسة . ويعتبر هذا الطفل زوجها الشرعى النظرى . ولكن يجب أن يكون لها بجانبه زوج على وهو عم الطفل أو ابن عمه أو أبوه نفسه أحياناً . وجميع من تأتى المرأة به من الأولاد يلحق نسبهم بزوجها الشرعى وحده . حتى إذا بلغ هذا الغلام أشده ، تكون المرأة قد وهن العظم منها وأدركتها الشيخوخة ، فيتصل بأحدى زوجات أولاده أو أقاربه الصغار ويصبح زوجها العملى إلى جانب زوجها الشرعى ، ويقوم بالدور نفسه الذى قام به غيره مع زوجته وهو صغير ... وهكذا دواليك[٣] .

وفى عشائر « النير » Nairs وهى التى تتألف منها الطبقة الراقية من عشائر « الملابار » Nalabar فى الهند ، يكون للمرأة عادة خمسة أزواج أو ستة ، وقد يصل هذا العدد أحيانا إلى عشرة أو اثنى عشر ؛ بل قد يباح لها أحيانا أن تقترن بأى عدد تشاء من الرجال . ولكن يشترط فى الأزواج أن يكونوا أقرباء بعضهم لبعض ينتمون إلى عشيرة واحدة . وقد جرت العادة أن تبيت مع كل واحد منهم نحو عشر ليال ، وأن يتناوبوا منها أدوارهم بالترتيب .[٤]

وفى بعض المناطق التابعة لروسيا Le Mir Russe ، كان رب العائلة يزوج أبناءه وهم بين الثامنة والعاشرة من أعمارهم لفتيات بين الخامسة والعشرين والثلاثين ،

---

(١) يشبه هذا ما تنسبه الأوديسيا إلى أوليس . (انظر كتابنا فى الشعر الحماسى عند قدماء اليونان ، ومبلغ دلالته على عقائدهم ونظمهم الاجتماعية » صفحتى ٣١ ، ٣٢) .

(٢) انظر فى هذا ما جاء فى العدد الصادر فى ٦/١٠/٥٥ من جريدة الاهرام نقلا عن رسالة جاءتها من دلهى الجديدة من مندوبها جون لافاتشيك .

(٣) Letourneau; la Sociologie d'après l'Ethnographie, 349.

(٤) Ibid. 353

على أن يكون الغلام الزوج الشرعى ، والأب نفسه الزوج العملى[١] ، على نحو ما كان متبعا فى عشائر الريدى فى الهند .

وفى بعض قبائل العرب فى الجاهلية كان الولد يشارك أباه فى زوجته (زوجة الأب) ؛ وكانوا يسمون هذا الولد « الضيزن »[٢] .

(الشكل الثانى) أن يباح هذا التعدد بدون تقيد بوجود رابطة قرابة بين الأزواج . وقد أخذ بهذا الشكل كذلك كثير من الشعوب البدائية والمتحضرة .

ففى جزائر المركيز (بولينيزيا) كان يباح أحيانا للمرأة أن يكون لها أكثر من زوج واحد بدون تقيد بوجود رابطة قرابة بين الأزواج . ولم يكن هذا مقصوراً على طبقة دون أخرى . فالرحالة إليس Ellis يحدثنا عن مظاهر لهذا التعدد لدى نساء الرؤساء وأعيان القوم أنفسهم[٣] . — وفى جزيرة « الهواى » Ile hawaï يكون للمرأة زوج أصيل تعتبر ملكا له ، وينسب إليه وحده من تأتى به من الأولاد ؛ ولكن يباح أن يكون لها بجانبه أزواج غير أصيلين لهم حق مساكنتها بدون أن يكون لهم الحق فى أن ينسب إليهم أحد ممن تأتى به[٤] . ولهذا النظام أشباه ونظائر فى سيلان والتبت وكثير من الجزر المحصورة بينهما ولدى عشائر التودا بجنوبى الهند Todas وعشائر المازاييس والباهيما بأفريقية Masaïs, Bahima[٥] .

ويظهر أن بعض قبائل العرب فى الجاهلية كانت تأخذ بهذا الشكل من الزواج . وإلى هذا تشير السيدة عائشة أم المؤمنين فى حديثها عن النكاح

---

(١) Ibid, 373

(٢) « الضيزن كحيدر الحافظ الثقة ، وولد الرجل وعياله ، وشركاؤه ، ومن يزاحم أباه فى امرأته ، ومن يزاحمك عند الاستقاء ... » اﻫ من القاموس المحيط .

(٣) Letourneau, op. cit. 349.

(٤) Ibid.

(٥) Ibid 352; Frazer : L'Orgine de la famille et du Clan (trad. fran.) 133; Westemarck, op. cit. 371.

فى الجاهلية إذ تقول : « كان يجتمع الرهط دون العشرة ، فيدخلون على المرأة فيصيبونها . فإذا حملت ووضعت ترسل إليهم ، فلا يستطيع واحد منهم أن يمتنع . وإذا اجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يافلان ، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، لايستطيع أن يمتنع عنه الرجل » .

ويظهر من هذا النص أن عدد الرجال الذين كان يباح لهم الزواج بامرأة واحدة وفق هذا النظام ما كان يصح أن يزيد على عشرة[1] . وأنه ما كان يشترط أن توجد بينهم رابطة قرابة ، وأن معاشرتهم للزوجة لم تكن على صورة دائمة ، ولم تكن لها مقومات الحياة العائلية ، وأن هذه الصلة ، على الرغم من حالتها المؤقتة ومن تجردها من صفات الحياة العائلية ، كانت توجب على الرجال بعض التزامات فيما يتعلق بنسب الأولاد على الأخص ، فكان للمرأة الخيار فى أن تلحق ولدها بأى رجل منهم فيتصل نسبه به .

(الشكل الثالث) أن يكون للمرأة زوج واحد ، ولكن يسمح لغيره أن يتصل بها فترة ما محددة قبل زفافها أو بعده فى ظروف معينة وبقيود خاصة بدون أن يكون لهذا الدخيل صفة الزوج ولا حقوقه .

فمن ذلك نكاح « الاستبضاع » الذى كان شائعا عند قدماء اليونان وعند العرب فى الجاهلية وعند الهنود وغيرهم . ونكاح الاستبضاع أن يدع الزوج زوجته تتصل برجل عظيم لتاتى له بأولاد نجباء ينسبون إلى الزوج من الناحية الشرعية ويحملون اسمه ويعتبرون من أولاده ؛ ولكن تتوافر فيهم بالوراثة صفات الرجل العظيم الذى جاءوا من مائه . فهذا الرجل لم تكن لتربطهم به أية رابطة شرعية قانونية ، وإنما كان يعد مجرد أداة استخدمت فى انجابهم على

---

(١) فإن زادوا على ذلك اعتبرت المرأة بغيا ، وطبق عليها نظام البغايا التى أشارت إليه عائشة فى قسم آخر من حديثها — وسنعرض له عند كلامنا على الشيوعية الجنسية فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل .

ضرورة ما . وقد أجاز مشروع « اسبرطه » الشهير « ليكورغوس » هذا النظام . فأباح للازواج أن يرسلوا زوجاتهم لعظماء الرجال ليستبضعوا منهم ويحصلوا بذلك على أولاد نجباء . وحث ليكورغوس الشيوخ من الأزواج أن يبحث كل منهم لزوجته الشابة على فتى كريم الخلق لتستمتع به ؛ وعدّ هذا العمل من أعمال الفضيلة والإيثار ومن الأعمال الوطنية الجليلة إذ يحقق للبلاد نسلا قويا(١) .

وقد جاء في حديث عائشة عن النكاح في الجاهلية ما يدل على أن هذا النظام كان متبعا كذلك عند العرب قبل الإسلام ، وذلك إذ تقول « كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : ارسلي إلى فلان فاستبضعي منه . ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد . فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع » . ويظهر من هذا النص أن الأمر كان يتم برغبة الزوج بل بأمره ؛ وأنه كان يفعل ذلك حرصا على نجابة أولاده ؛ ولذلك كان يجعل الزوجة تستبضع من عظيم من عظماء القوم حتى يرث الولد صفاته فيكون موضع فخر للزوج ؛ وان هذا الولد يعتبر ولداً للزوج الشرعى لا للعظيم الذى جاء من صلبه . وقد أجازت قوانين مانو (وهى الشريعة التى تقوم عليها الديانة البرهمية فى الهند) للمرأة أن تتصل بزوج أختها إذا كان زوجها هو عقيما لتأتى لزوجها بأولاد(٢) .

وفى بعض المجتمعات كان يباح للمرأة فى حالة غيبة زوجها أن تعيش مع رجل تختاره لتجد فى كنفه ما يلزم لها من رعاية وحماية . غير أنها ما كانت تعد زوجة له . وانما كانت تبقى من الناحية الشرعية على ذمة زوجها الغائب . وقد عثر علماء الإتنوجرافيا على هذا النظام عند بعض الشعوب البدائية وخاصة عند بعض عشائر من سكان أستراليا الأصليين(٣) .

---

(١) Letourneau, op. cit. 369

(٢) Ibid. 354.

(٣) Westermarck, op. cit. 377.

وفى بعض المجتمعات كان يباح للزوج أن يعير زوجته أو يؤجرها لشخص آخر أو يقدمها لضيفانه ، وكان ينظر إلى هذا الإجراء الأخير لدى هذه المجتمعات على أنه مظهر من مظاهر تكريم الضيف والحفاوة به . فى بعض عشائر من سكان أستراليا الأصليين كان يمكن لأى رجل أن يستأجر امرأة صديقه للاستمتاع بها مدة ما لقاء أجر معين(١) . وفى أثينا كان كثير من عظماء الرجال أنفسهم يعيرون زوجاتهم لغيرهم . وقد أعار سقراط نفسه زوجته « جزانتيب » Xantipp إلى « أليسياب » Allciabe(٢) . — وتقديم الزوجة للضيف كان تقليداً متبعا عند كثير من الشعوب السامية وغيرها .

وفى بعض المجتمعات كان يتحتم أو يجوز أن يدخل على العروس قبل أن تزف إلى زوجها بعض رجال الدين أو السحر أو ذوى السلطان أو طائفة من ضيوف العروس أو غير هؤلاء . — فى بعض العشائر الأسترالية جرت التقاليد أن يتصل بالعروس ، قبل زفافها إلى زوجها بعض أفراد معينين من رجال عشيرتها . وقد حدد العرف طبقات الأفراد الذين يباح لهم ذلك ونظم اتصالهم بالعروس ورتبهم بحسب درجة قرابتهم ، فجعل لكل منهم دوراً لا يستقدمه ولا يستأخره .(٣)

وقد جرت العادة فى مالابار Malabar بالهند أن تقضى عروس الملك بعد أن يتم عقد زواجها به الليالى الثلاث الأولى مع كبير رجال الدين ؛ وبعد انقضاء هذه المدة كان يمنحه الملك خمسين قطعة من الذهب مكافأة له على ما قام به .(٤) وفى جزائر البليار Baléares كانت العَروس تقدم نفسها فى الليلة الأولى من زفافها لجميع من يحضر عرسها من المدعوين من الرجال(٥) . — وقد كتب الرحالة

---

(١) Letourneau op. cit. 330.

(٢) Ibid, 369

(٣) Frazer, op. cit. 108.

(٤) Letourneau, op. cit. 363, 364.

(٥) Ibid. 367.

الطليانى ماركوبولو Marco-Polo (١٢٥٤ — ١٣٢٣ م) عند سكان الكوشنشين Cochinchine (منطقة من الهند الصينية) أنه لا يجوز للعروس أن تزف إلى زوجها إلا بعد أن تعرض على الملك ويتصل بها إذا شاء(١) . ومن ذلك أيضا ما تذكره الأساطير العربية بصدد قبائل طسم فى الجاهلية ، إذ تروى أن الملك فى هذه القبائل كان يفترع كل عروس قبل أن تزف إلى زوجها . وتنسب هذه الأساطير الفضل فى القضاء على هذا النظام لفتاة عربية تدعى « عفيرة » ، افتضها ملك طسم قبل زفافها ، فخرجت إلى قومها تثير حميتهم وتستحثهم على القضاء على هذا العار بقصيدة تقول فيها :

أيجمل ما يؤتى إلى فتياتكم ... وأنتم رجال فيكم عدد النمل

فلو أننا كنا رجالا وكنتم ... نساء لكنا لا نقر لذا الفعل

ومع أن أسلوب هذه القصيدة وعباراتها تدل على أنها من صنع الرواة فى العصور اللاحقة للإسلام ، فانه من المحتمل أن تكون هذه الأسطورة مترجمة فى جملتها عن نظام كان متبعا عند بعض قبائل العرب فى الجاهلية وتناقل الناس قصته خلفهم عن سلفهم . — ومن ذلك أيضا أن التقاليد فى قبائل الكيبسيجيس Kipsigis فى كينيا الإنجليزية تبيح للفتاة ، قبل أن تبلغ سن « الالتحاق Initiation » (وهى السن التى تلتحق فيها بالجمعية الدينية ، بعد عدة طقوس معقدة) أن تتخذ لها عشيقا من بين أفراد عشيرتها . ويأوى إليها هذا العشيق فى فسطاط خاص يسمونه « سينجرورانا Singoroina » ، فيقضيان معا سواد الليل عاريين متحاضنين ، ويسمح لعشيقها أن يتصل بها فى أوضاع خاصة متعارف عليها بدون أن يفتض بكارتها . فإذا تزوج أحدها (ويندر أن يتزوج العشيق عشيقته ؛ ومهما يكن من شىء فإن أولياء الأمور هم الذين يزوجون فتيانهم وفتياتهم بدون حاجة إلى استشارتهم ولا رضاهم) انقطعت صلته بالآخر . وإذا اتفق أن تجاوز شاب

---

(١) Ibid. 354

فى صلته بعشيقته الأوضاع الاجتماعية لحملت منه ، فإن المجتمع ينكر ذلك ؛ ولكن هذا لا يحول بينها وبين الزواج ، حتى وهى فى حالة الحمل ؛ بل أن الزوج ليغتبط أكبر اغتباط إذا ظهر له أن عروسه قد زفت إليه وهى حامل . والولد يعتبر على الرغم من ذلك ابنا للزوج الشرعى لا للعشيق (١) .

* * *

هذا ، وينتشر نظام تعدد الأزواج للزوجة الواحـــدة فى أشكاله المختلفة فى الشعوب التى يزيد فيها عدد الرجال على عدد النساء . ولكن هذا السبب لا يكفى لنشأة هذا النظام إلا إذا انضمت إليه عوامل اجتماعية أخرى . وغنى عن البيان أن هذا النظام يؤدى إلى ضعف غريزة الغيرة على النساء . وهـذا هو مالاحظه الباحثون فى الشعوب البدائية التى تزاوله . — ولم ينتشر هـذا النظام انتشاراً كبيراً فى الشعوب الإنسانية ، بل من الممكن القول إنه كان بمثابة استثناء نادر من القواعد العامة للزواج .

وقد ظن ماك لينان Mac Lenan أنه كان القاعدة فى الزواج فى العصور الإنسانية الأولى . ولكن هذه النظرية لم يقم عليها أى دليل يطمأن إليه ، بل قام على بطلانها أدلة كثيرة . فمن استقراء ظواهر الزواج يظهر أن هذا النظام لم يبدى فى صورة واضحة إلا لدى طائفة من الشعوب المتحضرة كما يتبين ذلك من الأمثلة التى ضربناها فيما سبق ، وأنه لم يبد فى الشعوب البدائية ، التى تمثل أقدم الأوضاع الإنسانية ، إلا فى نطاق ضيق كل الضيق ، وفى صور غير واضحة يمكن رجعها إلى نظم أخرى من نظم الزواج (٢) .

---

(١) Peristiany : La Vie et le Droit Coutumier de Kipsigis de kenya; Social Institution of Kipsigis

(٢) V. Westermarck, op. cit. 371, 372,

— ٢ —

تعدد الأزواج والزوجات معا

mariage par groupes

وهو نظام يباح بمقتضاه لجماعة معينة من الرجال أن يعاشروا عدداً معينا من النساء معاشرة الزوجية على أن يكن حقا مشاعا بينهم . — وقد كشفت البحوث التاريخية والإنتوجرافية عن عدة أشكال لهذا النظام فى كثير من الشعوب البدائية وغيرها . — وفيما يلى بعض نماذج لمختلف أشكال هذا النظام :

فى بعض قبـــائل التبت وهملايا كان يجوز لطائفة من الرجال أن يتزوجوا طائفة من النساء على طريق الشيوع(١) . ويروى المؤرخ اليونانى « سترابون » عن بعض الشعوب السامية البدوية من العرب وغيرهم أن بعض عشائرها كانت تسير على نظام تعدد الأزواج والزوجات معا(٢).

وعند بعض السكان الأصليين لجزائر پولينزيا Polynesie كان يعاشر الأخوة أخواتهم معاشرة الأزواج(٣). وفى « جزائر الشركة » Iles de la Société (من مجموعة جزائر پولينزيا) كان يجتمع أحيانا فى منزل واحد نحو عشرين رجلا متزوجين ، فتصبح زوجاتهم شبه مشاعات بينهم(٤). — ولوحظ شىء من ذلك أيضا عند طوائف من السكان الأصليين لأستراليا . — ولكن يظهر أن هذه الأوضاع قد نشأت عند البدائيين فى پولينزيا وأستراليا نتيجة لتجمع عدد من الأسرات فى منزل واحد أو فى كوخ واحد ، وأن كل امرأة من النساء كانت

---

(١) Frazer, op. cit.

(٢) Letourneau, op. cit. 394.

(٣) Frazer, op. cit. 102, 103.

(٤) Letourneau, op. cit. 388.

تعتبر زوجة لرجل معين ، وإن كان يجوز لغيره من المقيمين معه فى المنزل أن يتصل بها[١]. ولم يكن الدكتور هويت Dr. Howitt على حق حينما اتخذ من هذه الأمثلة دليلا على أن تعدد الأزواج والزوجات معا كان النظام الأصيل والأقدم عند الأستراليين ، وأن النظم الأخرى نظم مستحدثة لديهم بعد ذلك . وفى الحق أن العكس هو الصحيح . فإن الزواج الفردى هو النظام السائد لديهم ، وهو الذى كانوا ينظرون إليه على أنه الزواج الشرعى . أما هذه الاتصالات التى ضربنا أمثلة لها فكانوا ينظرون إليها على أنها أمور استثنائية خارجة عن الزواج اقتضتها ظروف خاصة[٢] .

ومن أهم مظاهر هذا النظام ما يسمونه « الزواج الأخوى » ، وهو نظام يبيح للاخوة أن يتزوجوا عدداً من النساء على أن يكن حقا مشاعا بينهم . وهذا النظام على ضربين : ضرب مطلق يباح بمقتضاه للاخوة أن يتزوجوا عدداً من النساء سواء أكن قريبات بعضهن لبعض أو غير قريبات ؛ وضرب مقيد يباح بمقتضاه للاخوة من أسرة ما أن يتزوجوا بأخوات من أسرة أخرى على أن يكن شائعات بينهم . وهذا النظام بضربيه كان معمولا به فى بعض الشعـــوب البدائية وفى بعض بلاد الهند على الأخص[٣] . فعند بعض العشائر من سكان پولينزيا الأصليين كان يباح للاخوة الذكور أن يتخذوا زوجات مشتركات بينهم ، سواء أكن قريبات ، بعضهن لبعض أم غير قريبات (٤) . وفى بعض عشائر التودا Todas بالهند الجنوبية كانت الفتاة إذا تزوجت رجلا أصبحت بحكم هذا الزواج

---

(١) Westermarck, op. cit. p. p. 376.

(٢) Ibid, 377.

(٣) انظر تفاصيل هذا الموضوع فى :

Westermarck, op. cit. 134,

Frazer, op. cit. 141—142.

(٤) Letourneau, op. cit. 388.

نفسه زوجة لجميع إخوته الأصغر منه Frères puinés بمجرد أن يبلغ كل منهم الحلم ، ويصبح هؤلاء الإخوة كذلك أزواجا لأخوات المرأة الصغريات بمجرد أن يبلغن المحيض . وينسب أول ولد لكل امرأة منهن للاخ الأكبر والولد الثاني لمن يليه وهكذا بحسب ترتيب السن(١) . وفى عشائر التوتيار Tottiyars فى الهند يشترك الإخوة وأعمامهم فى زوجات شائعات بينهم(٢) . وفى سيلان ينتشر نظام تعددالزوجات والأزواج معا عند الطبقات الموسرة على الأخص ، ويكون الأزواج فى الغالب أخوة ؛ وينسب جميع الأولاد لجميع الأخوة بدون تفرقة بينهم(٣) .

ويرى مرجان وفرزر Margan,Frazer أن نظام «الزواج الأخوى» قد ترك عدة آثار فى نظم الزواج المتبعة فى كثير من الشعوب الإنسانية . ومن أهم هذه الآثار نظامان يسير على أحدهما أوعلى كليهماعدد كبيرمن المجتمعات : أولهما يسمى الليفيرا (Levirat : du latin "levir" = frère du mari) أى الزواج بأرملة الأخ ؛ وهو نظام يتحتم أو يحسن أو يجوز بمقتضـــاه للاخ الأصغر أو الأكبر أو كليهما (حسب اختلاف الأمم التى تسير عليه) أن يتزوج أرملة أخيه المتوفى . وهذا النظام منتشر فى كثير من الأمم الإنسانية . ويظهر أنه كان سائداً فى بعض عشائر العربفى الجاهلية . — فقد روى عنهم أنه إذا مات أحدهم ، « قال وليه — وربما كان أخاه أو ابن عمه — أنا أحق بامرأته . فينقلها إلى داره ؛ ثم إن شاء استبقاها لنفسه ، وإن شاء زوجها وذهب بمهرها(٤) » . وقد قضى الإسلام على هذا النظام وقطع أسباب الأخذ به . ومع ذلك لا تزال له إلى الوقت الحاضر آثار عميقة فى مصر وغيرها من البلاد العربية . وثانيهما سماه فرزر Frazer

---

(١) Ibid. 353.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid.

(٤) عبد الله عفيفى : المرأة العربية فى جاهليتها ص ٦٦ .

من باب القياس «سورورا» Sorare, du latin "Soror" = Sœur أى الزواج بأخت الزوجة . وهو نظام يتحتم أو يحسن أو يجوز بمقتضاه لزوج الأخت الكبرى الحية فقط أو المتوفاة فقط أو سواء أكانت حية أو متوفاة (بحسب اختلاف الأمم التى تسير عليه) أن يتزوج أخواتها الصغريات بعد وفاتها أو يجمعهن معا فى زواج واحد . وهـــذا النظام منتشر فى كثير من الشعوب البدائية وغيرها .

وقد لاحظه العلامة مرجان Morgan فى أربعين قبيلة من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية . وبعض القبائل التى تبيحه فى حالة حياة الأخت تحتم على زوج الأخت الكبرى أن يضم إليها أخواتها الصغريات ؛ وبعضها لا يحتم هذا الجمع ، بل يبيح لزوج الأخت الكبرى أن يتنازل لغيره عن أخواتها أو عن بعضهن (١) .

— ٣ —

الشيوعية الجنسية Promiscuité

وهى أن يكون جميع النساء فى مجتمع ما حقا مشاعا لجميع رجاله وجميع رجاله حقا مشاعا لجميع نسائه بدون تقيد بنظم الزواج المعروف .

ونظام الشيوعية المطلقة لم نعثر عليه فى أى مجتمع من المجتمعات الإنسانية ، سواء فى ذلك البدائى منها والمتحضر . فليس من بين المجتمعات الحاضرة والغابرة التى وقفنا على نظمها عن طريق ملاحظتها أو ملاحظة ما خلفته من آثار أو عن طريق ما كتبه المؤرخون أو الرحالة أو علماء الإتنوجرا Ethnographie (وتطلق هذه الكلمة الآن فى الغالب على البحث فى النظم الاجتماعية للشعوب البدائية) أو القانون ، ليس من بين هذه المجتمعات ، أى مجتمع أخذ بنظام الشيوعية المطلقة فى علاقة الرجال بالنساء . فكان جميع نسائه حقا مشاعا لجميع رجاله .

---

(١) Frazer, op. cit. 134—142.

صحيح أنه قد عثر فى بعض الشعوب البدائية وغيرها على نظم وتقاليد قد يتبادر إلى الذهن فى بادىء الرأى انها شيوعية جنسية أو رواسب من شيوعية جنسية كانت مستخدمة قديما . ولكن عند تحليل هذه النظم والتقاليد يتبين أنها ليست من الشيوعية الجنسية فى شىء .

وسنعرض فيما يلى لأهم هـــذه النظم مبينين ما بينها وبين الشيوعية المطلقة من فروق .

فن ذلك ما لوحظ عند بعض الشعوب البدائية من إباحية فى العلاقات الجنسية بين غير المتزوجين من الرجال والنساء ، وما لوحظ عند بعضها من إباحية فى هذه العلاقات من قبل الزواج ومن بعده . فعند قبائل البارى والكيناما Bari, Kunama فى شرق أفريقيا لا ينظر إلى الاتصال بفتاة غير متزوجة على أنه عمل شائن أو مناف للخلق الكريم . بل إن علوق الفتاة من السفاح قبل زواجها لا ينقص لدى هذه العشائر شيئا من قيمتها ولا من سمعتها ، ولا ينالها من جراء ذلك ولا ينال من اتصل بها عقاب ولا لوم ولا ازدراء . — ولا تجـــد عشائر الوانيورا Wanyora أية غضاضة فى أن يكون للفتاة غير المتزوجة عشيق . وكثيرا ماتقضى فتياتهم الليل كله عند عشاقهن ولا يعدن إلى منازلهن إلا فى الصباح ، فلا يجدن من أفراد أسرتهن غضباً ولا نفوراً . — وفى عشائر الواديجو Wadiga يندر أن تزف فتاة إلى زوجها وهى بكر ، ويعتبر هذا لديهم حادثا مخجلا ، بل يعد فضيحة لكلا العروسين . — وفى عشائر الباكونجو Bakongo لا تعرف حصانة النساء ولا يقام لها وزن ، وإنما يقاس شرف المرأة وتقاس مكانتها بمبلغ الرغبة فيها وما يعرضه الراغبون فى شرائها أو الزواج بها من ثمن . — وفى معظم مناطق أفريقيا الاستوائية الإنجليزية لا يحظر الاتصال بالفتيات قبل بلوغهن ، بل يندر — حسب ما يروى سير جونستون Sir H. Johnston — أن تصل لديهم

فتاة إلى سن الخامسة بدون أن تكون قد افتضت بكارتها . — وفى قبائل الكفريين (الجنوب الشرقى من أفريقيا) لا توقع عقوبة ما على الاتصال بفتاة بكر ولا على معاشرة امرأة غير متزوجة أو متوفى عنها زوجها معاشرة سفاح ، ولا ينظر إلى مقترفى هذه الأعمال نظرة تحقير ولا ازدراء . — وفى جزيرة مدغشقر لا يعد الزنا بغير المتزوجات ومن غير المتزوجين من الرذائل ؛ ولا تجب العفة لديهم على الرجل ولا على المرأة إلا بعد الزواج . — وفى عشائر الماوريس بزيلندة الجديدة - Maoris à la Nouvelle Zelande يلقى للفتيات قبل الزواج الحبل على الغارب ، ولا يكاد يقام وزن لعفافهن . — وفى جزر التونجا Tonga يباح لغير المتزوجة من النساء أن تتخذ من العشاق من تشاء وتشاؤه لها أهواؤها بدون تقيد بعدد وإن كان من الخجل لديهم أن تكثر المرأة من تغييرها لعشاقها . — وفى جزيرة سان — كريستوفال St. Christoval وفى الجزر المجاورة لها يباح للفتاة فى أثناء سنتين أو ثلاث سنين بعد بلوغها المحيض أن تتصل بمن تشاء من الفتيان . وكثيراً ما تتصل الفتاة لديهم فى أثناء هذه الفترة بجميع فتيان قريتها أو بمعظمهم . — ولدى عشائر « الأنجامى ناجاس » Angami Nagas حيث يعد تقصير الضفائر أمارة على البكارة تخجل الفتيات من أن تظل ضفائرهن قصيرة أمداً طويلا ، ويعملن على أن يأتين ما يبيح لهن إطالة ضفائرهن ؛ ولا بأس أن يحملن من اتصالاتهن هذه : بل أن الزوج فى هذه العشائر ليحرص على ألا تزف إليه عروسه إلا وقد أقامت الدليل العملى من قبل على أنها ليست عقيا ؛ ولا تكون العفة فضيلة عند هذه العشائر إلا بعد الزواج . — وقد ذكر مردوخ عن عشائر الإسكيمو أنه لا يقام لديهم وزن لما يسمى العفة والحصانة ؛ فاتصال رجل متزوج أو غير متزوج بامرأة متزوجة من غيره أو غير ذات زوج ، بل اتصال الذكور من الأطفال بإناثهم اتصالا جنسيا ، كل ذلك يعد فى نظرهم من قبيل اللهو المباح » . — وقد لوحظ

شيء من هذه الأباحية المطلقة لدى بعض العشائر الأسترالية كذلك . —
ويستفاد من قصيدة هنـــدية قديمة وهى قصيدة الماهابهاراتا Mahâbhârata
(وهى تشبه الإلياذة والأوديسيا عند اليونان كما سبقت الإشارة إلى ذلك)
أن هذه الإباحية كانت سائدة عنـــد قدماء الآريين وأنه لم يكن ينظر
إليها على أنها رذيلة . — وفى بعض مناطق الهنديباح الأرملة وللزوجة التى يضارها
زوجها أن تتصل بمن تشاء على شريطة أن تقدم قبل ذلك أضحية لأحد معابد تولافا
Tulava . — وفى جزر الملايو ولدى كثير من العشائر غير المتحضرة فى الهند والهند
الصينية لا يعد اتصال الرجال غير المتزوجين بالنساء غير المتزوجات خطيئة
ولا عيبا . — وتروى الأساطير الصينية أن هذه الإباحية هى التى كانت سائدة
فى أقدم العهود ، وأن أول ملوك الصين فى العهـد الخرافى وهو فوهى Fo - hi
هو الذى وضع حداً لهذه التقاليد . — وفى بعض الشعوب يباح فى بعض أعياد
وبعض حفلات دينية ووطنية اتصال الرجال بالنساء بدون قيد ولا شرط .
ففى عشائر السونتال Sonthals بالهند مثلا جرت العادة أن يعقد جميع الراغبين
فى الزواج عقودهم مرة واحدة كل عام فى أيام معلومات ، ويسبق هذه الأيام
ستة أيام يباح فيها لجميع الرجال الاتصال بجميع النساء [١] .

ولـكن هـذه الظواهر وما إليها لا تدل على أن هذه الشعوب كانت تسير
على نظام الشيوعية الجنسية المطلقة . ففى جميع هذه الشعوب يعد الزواج هو الوضع
العادى السوى لـكل من الرجل والمرأة . وكل ما هنالك أنه يباح لديها فى خارج
نطاق الزوجية اتصال الرجال بالنساء فى بعض الأحوال وبعض الشروط ،

(١) انظر فى الأمثلة التى ذكرناها وغيرها :

Westermarck, op. cit, 406,4 07,
Letourneau, op, cit. 330, 352, 360, 363, 364.

أو لا تعاقب قوانينها ولا تقاليدها على هذا النوع من الاتصال . فهذا الاتصال عبارة عن استثناء من النظام الأصلي المقرر في صدد ارتباط الرجل بالمرأة ، واستثناء غير مطلق ، بل مقيد بعدة قيود . ولا يعد الشعب سائراً على نظام الشيوعية الجنسية المطلقة إلا إذا ألغى الزواج بجميع أشكاله ، وأصبح جميع نسائه حقا مشاعا لجميع رجاله .

أهم مراجع هذا الفصل

مذكورة في التعليقات

الفصل الثانى

البغاء المدنى والبغاء المقدس

- ١ -

البغـــاء المدنى

أقر نظام البغاء المدنى كثير من الشرائع والتقاليد لدى كثير من الشعوب المتحضرة والبدائية فى مختلف العصور ، وإن كان انتشاره عند الشعوب المتحضرة أوسع من انتشاره عند غيرها .

فالعهد القديم يحدثنا عن البغايا من الإماء وغيرهن وعن البغاء على أنه نظام معترف به ومنتشر انتشاراً كبيراً لدى قدماء العبريين ؛ ويذكر أن كثيرا من آباء بنى اسرائيل ومن علية القوم أنفسهم كانوا يغشون أحيانا منازل المومسات ، وأن هؤلاء كانت لهن أجور معلومة . وينص سفر اللاويين على أنه لايجوز للأب أن يخصص ابنته للبغاء[1] ؛ وهذا يدل على أن فريقا من بنى اسرائيل فى هذا العهد كانوا يفعلون ذلك. — وكان هذا النظام منتشرا كذلك عند العرب فى الجاهلية. ففى حديث عائشة عن أنواع النكاح قبل الإسلام ، أنه كان يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ؛ وهن البغايا ؛ وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما ؛ فمن أرادهن دخل عليهن » .وقد ظل البغاء منتشرا عند مشركى العرب حتى بعد ظهور الاسلام . فقد كان لعبد الله بن أبى ست جوار خصصهن

---

(١) اللاويون ، اصحاح ١٩ ، آية ٢٩ .

للبغاء وضرب عليهن الضرائب ؛ فشكى بعضهن ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنزل قوله تعالى : ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا[١] » . — وكان كثير من سراة اليونان فى العصور القديمة يستخدمون إماءهم كذلك فى البغاء للانتفاع بأجورهن . وقد أقر المشرعون أنفسهم هذا الضرب من الاستغلال الخسيس ؛ بل إن بعض حكوماتهم قد أخذ ينافس الأفراد فى هذه التجارة . فقد نظم صولون نفسه ، وهو كبير مشرعى أثينا وحاكمها ، شئون البغاء الرسمى وأنشأ منازل خاصة للبغايا واشترى عددا كبيراً من الإماء وفرقهن على هذه المنازل لتنتفع الدولة بأجورهن . وبجانب هذا الصنف المبتذل من المومسات ، كان يوجد فى أثينا صنف آخر من البغايا كن يعرفهن باسم « البغايا الراقيات » وكن يمتزن بجمالهن الباهر وذكائهن الوقاد ، وكن موضع تقدير كثير من الناس ، بل كان عظماء الرجال أنفسهم يحرصون على الاتصال بهن ، وكن يعتبرن من الطبقات الراقية فى المجتمع[٢] . — ومع أنه كان ينظر فى روما للبغايا نظرة احتقار ، وكانت أسماؤهن تدون فى القوائم العامة للتشهير بهن ، فإن البغاء كان منتشرا انتشاراً كبيرا فى معظم المدن الرومانية . ولم يصدر أمر صريح بتحريم البغاء إلا فى السنة التاسعة عشرة بعد الميلاد . على أن هذا التحريم لم يكن عاما وإنما كان مقصورا على الحرة المنحدرة من أبوين رومانيين ومن تكون زوجة لرومانى أصيل . ومعنى ذلك أنه كان يباح لغير هاتين الطائفتين من النساء امتهان البغاء[٣] . — وكان كثير من اليابانيين يخصصون بناتهم للبغاء للانتفاع بأجورهن فيلحقونهن بمنزل من منازل الفسوق حيث يقضين حياتهن كلها أو فترة منها . وما كان يجوز للبنت أن تعصى أباها ولا أن تعترض على أمره[٤] . ويضاف إلى هؤلاء طائفة أخرى كبيرة العدد فى اليابان تتألف

---

(١) سورة النور ، آية ٣٣ ، انظر تفسير البيضاوى .

(٢) Westermarck. op. cit, 413 .

(٣) Ibid.

(٤) Ibid. T. I. 604 : et Letourneau, op. cit. 362

من اللائى يسلكن هذا الطريق بمحض اختيارهن . ومن ثم انتشر البغاء فى اليابان انتشارا مروعا وبلغ عدد ضحاياه عشرات الألوف ، حتى إن الحكومة الحاضرة لتجد صعوبة فى القضاء عليه أو تخفيف مضاره . — وقد جرت عادة بعض الأزواج فى الصين أن يقدموا زوجاتهم للبغاء للانتفاع بأجورهن . ولذلك ورد فى تشريعهم المعروف بالأوامر Ordonnances أنه إذا أكره رجل امرأته على البغاء ليبتغى من وراء ذلك عرض الحياة الدنيا ، وانتحرت المرأة حتى لا تقترف هذا المنكر ، وجب أن يقام لها على مقربة من منزل أبيها نصب تذكارى على هيئة «قوس النصر»(١) . — وكان كثير من الدول المتحضرة فى العصور الحديثة فى أوربا وأمريكا وغيرهما ، حتى الدول الاسلامية نفسها ، تقر البغاء الرسمى وتسن له اللوائح والقوانين ، وتنتفع حكوماتها بما تجبيه من المومسات من رسوم وضرائب . ولا يزال هذا النظام معمولا به فى كثير من هذه الأمم فى الوقت الحاضر . وقد كان نظام البغاء الرسمى معترفا به فى مصر نفسها إلى عهد قريب ، حتى بعد أن تقرر فى دستورها أن دينها الرسمى هو الاسلام ؛ بل لقد تطوع بعض الكتاب — ولا يزال بعضهم يتطوع إلى الآن — بالدفاع عنه بعد إلغائه ومطالبة الحكومة بإعادة النظر فى تحريمه لاتقاء بعض الأضرار الصحية واتقاء البغاء السرى حسب مايزعمون .

وكما انتشر البغاء فى الأمم المتحضرة انتشر كذلك فى كثير من الشعوب البدائية ، وإن كان انتشاره عند البدائيين لا يعد شيئا مذكورا بجانب انتشاره عند المتحضرين . — ففى مجموعة جزر «سانتا كروزا» Santa Cruz فى ميلانيزيا ، حسب رواية الدكتور كودرنجتون «Codrington» ، كان يمارس البغاء العمومى فى نطاق واسع عند السكان الأصليين . — وينتشر البغاء كذلك انتشارا كبيرا عند معظم زنوج أفريقيا . — وفى عشائر الوانيورو Wanyoro توجد للبغاء قواعد ونظم دقيقة تدل على تأصله لديها ورجوعه إلى أزمنة سحيقة فى القدم .

(١) Westermark, T. II, 411.

وفى جرونلاند Groenland كانت مزاولة البغاء تعد أمرا مباحا ، ولكن كان يحرم ارتكاب الفاحشة على غير البغايا من الفتيات ، وكان يعد من الكبائر أن تحمل فتاة غير بغى من السفاح . — وعند عشائر الأوماهاس Omahas (من عشائر الهنود الحمر وهم (السكان الأصليون لأمريكا الشمالية) كان يحرم السفاح إلا مع البغايا العموميات أو (المنكيدا) Manckeda وهو الاسم الذى كان يطلق عليهن لدى هذه العشائر . — وعند عشائر الإنكا Incas (السكان الأصليون لجمهورية بيرو بأمريكا الجنوبية) يزاول البغاء العام على أنه أمر مباح ويعتبر وسيلة لاتقاء كثير من الأضرار الصحية والاجتماعية ، وإن كان ينظر إليه وإلى من يزاولنه من الفتيات نظرة احتقار(١) .

— ٢ —

البغاء المقدس

وبجانب هذا البغاء المدنى ، يوجد نوع آخر من البغاء يطلق عليه اسم « البغاء الدينى » أو « البغاء المقدس » لأنه كان يعد شعيرة من شعائر الدين أو وسيلة لإرضاء الآلهة والتقرب إليهم . وقد عثر الباحثون على عدة مظاهر لهذا النظام عند كثير من الشعوب البدائية والمتحضرة ، وإن كان انتشاره عند الشعوب المتحضرة أوسع من انتشاره عند البدائيين .

فمن أظهر أمثلته عند الشعوب البدائية ما ذكره ريد Read عن بعض زنوج أفريقيا وما رواه إليس Ellis عن أهل ساحل العبيد وساحل الذهب بأفريقيا . فقد روى ريد أن كثيراً من زنوج أفريقيا ينظرون إلى البغاء أحيانا على أنه عمل من أعمال البر الدينى ، حتى إن الموسرات من النساء ليشترين ، وهن فى مرض

(١) انظر فى موضوع البغاء لدى الشعوب البدائية التى ذكرناها وغيرها :
Westermarck, op cit. 425, 426.

موتهن ، إماء يوصين بأن يخصص للبغاء ، ويتخذن من ذلك وسيلة للتقرب إلى الله وختم حياتهن بصالحات الأعمال ، « كما تفعل الموسرات من نساء إنجلترا إذ يوصين قبل وفاتهن بجزء من ثرواتهن لعمل خيرى عام »[١] . — وذكر إليس Ellis ، فى أثناء حديثه عن أهل ساحل العبيد Côte des Esclaves بأفريقيا ، أنه كان يوجد فى كل مدينة من مدنهم مؤسسة تقدم إليها الفتيات الجميلات من سن العاشرة إلى الثانية عشرة . ويقضى هؤلاء الفتيات بهذه المؤسسات ثلاث سنين يتعلمن فى أثنائها الرقص الدينى وترتيل الأوراد المقدسة فى صوت غنائى شجى . فإذا انتهت مدة تعلمهن تخصصن للبغاء المقدس ، فيصبحن من الناحية النظرية وقفا على رجال الدين ، وإن كن فى الواقع لا يمتنعن عمن يريدهن من غيرهم . وينظر الناس إليهن فى هذه البلاد على أنهن زوجات للآلهة ، ويعتقد أن ما يأتينه من أعمال ليس إلا ضربا من ضروب العبادة التى يتقرب بها إلى الله زلفى ويستدر بها عطف السماء . ولذلك كان ينظر إلى من يأتين به من أولاد على أنهم أولاد الله[٢] . — وروى « إليس » كذلك عن أهل ساحل الذهب أن راهباتهم وقسيساتهم كان يحرم عليهن الزواج ؛ ولكن كن يزاولن نوعا من البغاء المقدس يشبعن عن طريقه رغباتهن مع من يشأن من الرجال . « فإذا راق فى أعين إحداهن رجل ما دعته إلى منزلها وأنهت إليه أن الإله الذى وقفت حياتها على عبادته قد أوحى إليها أن تتخذه عشيقا لها . فيغتبط الرجل أن وقع عليه هذا الاختيار . ويظل حبيسا لديها يحقق لها رغباتها ، حتى تمله ، فتستبدل به رجلا آخر تعيد معه القصة نفسها ... وهكذا دواليك . وقد تجمع الواحدة منهن أكثر من رجل واحد فى منزلها ، بل لقد يصل عشاقها إلى ستة رجال أو نحو ذلك . وتسير البغى من هؤلاء فى الحفلات المقدسة يحيط بها عشاقها كما تحيط الحاشية بملكة أو أميرة . فحياتهن حياة فسق وفجور بالغين ؛ وقد ينحدر

---

(١) Read; Savage Africa 547; Westermarck op. cit. 425.

(٢) Ellis : Eve - speaking Peoples 141; Westermarck, op. cit. 427

بعضهن فى هذه الوحدة إلى مستوى حيوانى وضيع ، وخاصة عندما يهيجها الرقص الدينى الذى تزاوله من حين لآخر »[١] .

ولكن انتشار « البغاء المقدس » عند البدائيين لا يعد شيئا مذكورا إذا قيس بمبلغ انتشاره عند الشعوب المتحضرة فى العصور القديمة .

فعند قدماء العبريين كانت توجد طوائف من النســوة يزاولن البغاء فى المعابد[٢] ؛ وكان يعتقد أنهن يجلبن الخير والبركة لمن يتصل بهن . وظل هذا التقليد الدينى سائدا إلى أن حرمه « سفر التثنية »[٣] .

وعند قدماء الكنعانيين كانت توجد طائفة من النسوة يطلق عليهن اسم « كيديشولح » Kedesholh وقفن أنفسهن على خدمة المعبد ووهبن جسومهن للبغاء المقدس[٤] .

ومن أشهر أنواع « البغاء المقدس » فى الشعوب المتحضرة ما كان يجرى عليه العمل فى بابل فى معابد الإلاهة ميليتا Mylitta (وهى فى شخصيتها ووظائفها وأساطيرها تمثل الإلاهة أفروديت عند اليونان والإلاهة فينوس عند الرومان والإلاهة عشتروت عند الساميين)(٥) . وقد أفاض المؤرخ اليونانى هيرودوت فى وصف هذا النظام ، فذكر أن كل بنت تولد فى هذه البلاد كان يجب عليها مرة فى حياتها أن تذهب إلى معبد الإلاهة « ميلتتا » حيث تقدم نفسها لرجل أجنبى عن البلاد . فكانت تجلس فى ساحة المعبد حتى يمر بها أجنبى ويضع على ركبتها قطعة فضية من النقد داعيا فى أثناء ذلك « أن تباركها الإلاهة ميليتا وتشملها برعايتها » .

---

(١) Ellis : Tshi - speaking peoples, 121; Westermarck, op. cit. 427.

(٢) هو شع Osée الاصحاح الرابع ، آية ١٤ .

(٣) التثنية ، إصحاح ٢٣ آية ١٧ .

(٤) Westermarck, op. cit. 42.

(٥) انظر ص ٤٧ من الجزء الأول من هذا الكتاب .

م يصحب الفتاة بعيدا عن الساحة المقدسة ليقضى معها إربته . وكانت قطعة النقد تعتبر مقدسة بمجرد وضعها على ركبة الفتاة ، وما كان يباح للفتاة أن ترفضها أو ترفض دعوة صاحبها . وكان ينظر إلى هذه الاتصالات على أنها ضرب من العبادة الدينية تقدمها الفتيات لإلاهتهن ميليتا أو نوع من القربان يتقربن به إليها . وكان يعتقد أن هذا الضرب من العبادة وهذا النوع من القربان من أحب العبادات والقرابين إلى الإلاهة وأنه مصدر خير وبركة للفتاة نفسها ، كما تدل على ذلك العبارة التى كان يقولها الأجنبى وهو يلقى بقطعة النقد على ركبتها : « لتباركك الإلاهة وتشملك برعايتها » (حسب رواية هيرودوت) . وبعد أن تؤدى الفتاة واجبها هذا تعود إلى بيتها فرحة بما آتتها الآلهة من فضلها ؛ وثم تتلقى تهنيئات أهلها وصديقاتها وتغمرها هداياهم الثمينة(١) .

ولهذا التقليد البابلى أشباه ونظائر فى كثير من بلاد اليونان فى عصورها القديمة وخاصة فى بعض مناطق فى جزيرة قبرص وبيبلوس Chypre,Byblos وقورنثة وأثينا . فنى قبرص كان يجب على العذارى أن يذهبن إلى ساحل البحر فى أيام معلومات يقدمن بكارتهن قربانا للإلاهة أفروديت(٢) . وفى معبد الإلاهة أفروديت بقورنثة كان يوجد عدد كبير من النسوة يزاولن البغاء المقدس(٣) . وتروى الأساطير اليونانية أن بعض مدن اليونان كانت إذا اشتبكت فى حرب ينذر أهلها للالاهة أفروديت أن يخصصوا بناتهم للبغاء المقدس فى معابدها إذا أمدتهم بعون منها فخرجوا منتصرين على أعدائهم(٤) . وجرت عادة سراة اليونان فى مملكة أثينا وغيرها أن يخصصوا بعض إمائهم للبغاء فى معبد من معابد الإلاهة أفروديت على أن يخصص دخلهن من هذه المهنة لصندوق المعبد نفسه . وقد انتشرت هذه الطقوس فى مختلف بلاد اليونان ، واعتبر تقديم الإماء على هذا النحو من

---

(١) Westermarck, op. cit. 429, 430.

(٢) Ibid 429.

(٣) Letourneau, op. cit. 367.

(٤) Westermarck ,op. cit, 429.

صالحات الأعمال التى يتقرب بها الناس إلى الإلاهة ، حتى لقد كان الأغنياء وقواد الجيش ينذورون لهذه الإلاهة عددا من هذا الصنف من الإماء إذا تحقق لهم مأرب أو انتصروا فى حروب . فكثر من جراء ذلك عدد هذا الصنف من الفتيات حتى ضاقت عليهم معابد هذه الإلاهة بما رحبت . وقد أطرى هذه الأعمال كبير مؤرخيهم « سترابون » وعدها مشروعات وطنية جليلة ، لأنها ، على حد قوله ، تجذب الأجانب للبلاد فينفقون فيها أموالهم فتنتعش بذلك اقتصادياتها ويعمها الرخاء ويزداد دخلها القومى(١) .

وعند قدماء الأرمن كانت الفتيات تزاولن كذلك البغاء المقدس بالطريقة نفسها التى كانت تسير عليها البابليات أو بطريقة قريبة منها . فقد روى سترابون أن كل أسرة أرمنية ، حتى الأسرات الأريستقراطية الراقية ، كانت تبعث ببناتها إلى المعابد ليزاولن البغاء المقدس فترة معينة فى حياتهن (٢) .

ويظهر أن المرأة التى كانت تعد فى نظر قدماء المصريين زوجة للإلاه فى طيبة كانت تمارس كذلك البغاء المقدس فى المعابد . فقد روى المؤرخ سترابون أنها « كانت تتصل بمن تشاء من الرجال حتى يتخلص جسمها من أدرانه وتصل إلى أقصى درجات الطهر . وحينئذ تهب نفسها لرجل واحد(٣) » .

وفى كثير من معابد الهند فى العصور القديمة كانت تقطن طائفة من الراقصات يزاولن البغاء المقدس ؛ وكن موضع إجلال دينى ؛ فكانت مرتبتهن تأتى بعد مرتبة السدنة ومقدمى الضحايا للمعبد Sacrificateurs (٤) . وفى مدينة جوجا ناتهو كشو ترو Jugunnat'hu Kshutru (إحدى مدن أوريسا Orissa فى الهند) كان يوجد عدد من البغايا يرقصن فى المعبد أمام تمثال الإلاه ، وكن يسكن فى منازل قريبة من المعبد نفسه وإن كانت منفصلة عنه . وكان الأصل أن

---

(١) انظر كتابنا عن « قصة الملكية فى العالم » الطبعة الثانية ص ٨٦ .

(٢) Westermarck, op. cit. 429.

(٣) Ibid. 428.

(٤) Ibid.

يتصل بهن رجال الدين من طبقة البرهميين ، وإن كان يجوز ذلك لغيرهم من زائرى المعبد والطائفين به والعاكفين فيه(١) . وفى جوا وبونديشرى Goa; Pondichéry وفى كثير من وديان نهر الكنج Gange كان يجب على البنت قبل زواجها أن تمتهن البغاء المقدس فى معبد من معابد جاجارنو Jaggernaut (٢) . وقد ظلت هذه التقاليد سائدة فى هذه المناطق وغيرها من بلاد الهند إلى عهد قريب . ففى القرن التاسع عشر نفسه كان لا يزال يوجد فى كثير من معابد الهند عدد كبير من البغايا يزاولن مهنتهن لصالح المعابد نفسها ويخصصن لها دخلهن من هـــذه المهنة . وكان هؤلاء النسوة موضع تقدير وإجلال لخاصة القوم وعامتهم ، بل كن وحدهن اللاتى يسمح لهن بالتعلم فى الهند (٣) . وفى عهد بوذا نفسه كانت رئيسة البغايا موضع احترام كبير فى بلدة ڤيزالى Visali ولم يستنكف بوذا نفسه أن ينزل فى دارها(٤) .

— ٣ —

نفور المجتمعات من نظام البغاء على العموم

غير أنه لا يصح أن يعد نظام البغاء ، فى أية صورة ، من صوره ، من مظاهر الشيوعية الجنسية المطلقة . فهو فى جميع الشعوب التى أباحته ، كما ظهر لنا ذلك فيما سبق ، مقيد بقيود كثيرة ومنظور إليه على أنه استثناء لا يمثل مطلقا الحالة السوية الصحيحة لاتصال الرجل بالمرأة ولا يستخدم إلا فى نطاق محدود . هذا إلى أن جميع الشعوب التى تبيحه الآن نظمها المدنية تنظر إلى الاتصال الذى يتم فى نطاقه نظرة سخط وتعتبره من أكبر الجرائم من الناحيتين الدينية والخلقية .

(١) Ibid

(٢) Letourneau, op. cit. 263

(٣) Ibid. 364

(٤) Ibid.

وكذلك كان شأنه في كثير من الأمم القديمة التي كانت تبيحه . وإليك مثلا العرب في الجاهلية . فإنهم كانوا يحتقرون البغايا ومن يتصل بهن وينظرون إلى البغاء وتوابعه نظرتهم إلى أكبر جريمة . وكانت البغايا يتوارين عن العيون بمنجاة عن المدائن والقرى ومضارب خيام البادية ، وينصبن على بيوتهن رايات تكون آية على مهانتهن . وكان لا يذهب إليهن إلا سفلة الناس وسوقتهم ، ويذهبون إليهن في الظلام يجرون أطراف مآزرهم وراءهم لتطمس آثار أرجلهم على الرمال . ولذلك أطلق على البغايا اسم المظلمات ، كما كان يطلق عليهن اسم المهينات . وكان من جوامع كلمهم في المدح : « فلان لا يرخى لمظلمة إزاره » . وفي ذلك تقول العوراء بنت سبيع في رثاء .

أبكى لعبـــد الله إذ حشت قبيل الصبح ناره (١)

طيان طاوى الكشح لا يرخي لمظلمــة إزاره(٢)

وقد قيدته التقاليد العربية بقيود كثيرة . فمن ذلك أنه ما كان يباح في الغالب لعربية أن تمتهن البغاء ، بل كاد ذلك يكون مقصوراً على الإماء . وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء » ، والمراد بالفتيات الإماء كما هو الشائع في استعمال هذه الكلمة عند العرب ، وكما يدل على ذلك سبب نزول الآية(٣) . ومن ذلك أنه كان يترتب عليه كثير من الالتزامات العائلية كما أشارت إلى ذلك عائشة إذ تقول في حديثها عن أنواع النكاح في الجاهلية : « كان يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا ، وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما . فمن أرادهن دخل عليهن . فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا القافة (وهم المهرة في القيافة . والقيافة

---

(١) حشت ناره أي أوقدت . وهذا مثل أرادت به أنه قتل قبيل الصباح ، فضربت لقتله مثلا بإيقاد النار ؛ والعرب تقول أوقدت نار الحرب إذا هاجت .

(٢) الطيان صفة مشبهة من الطوى وهو الجوع . والعرب ترى من السيادة ألا يشبع الرجل ، وطاوى الكشح أي ضامر ليس بضخم الجنبين .

(٣) انظر آخر ١٠٢ وأول ص ١٠٣ .

فن كان منتشراً عند العرب يستطيع الراسخون فيه أن يعرفوا الأصل الذى انحدر الولد من مائه عن طريق الشكل الخارجي لتكوين أعضائه وحجمها ولون بشرته ... وما إلى ذلك[١]) ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاط به (أى اتصل به) ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك » .

وحتى البغاء المقدس نفسه الذى كان مقبولا عند الشعوب التى أخذت به كان منظوراً إليه على أنه استثناء من النظام الأصلى المقرر فى صدد اتصال الرجل بالمرأة واستثناء غير مطلق بل مقيد بعدة قيود كما ظهر ذلك فيما سبق .

فلا يصح إذن أن ينظر إلى البغاء فى أية صورة من صوره على أنه مظهر من مظاهر الشيوعية الجنسية المطلقة . فالشعب لا يعد سائراً على نظام الشيوعية الجنسية المطلقة إلا إذا ألغى الزواج بجميع أشكاله وأصبح جميع نسائه حقا مشاعا لجميع رجاله . وهذا لم نعثر عليه فى أى شعب من الشعوب التى تبيح البغاء ولا فى غير هذه الشعوب .

أهم مراجع هذا الفصل

مذكورة فى التعليقات

---

(١) والقافة أيضا الذين يعرفون آثار الأقدام . ولعلهم كانوا يبحثون كذلك آثار الأقدام التى ذهبت إلى البغى ليعرفوا أصحابها تمهيدا لإلحاق الولد بأحدهم . ولعل هذا كان من بين الأمور التى كانت تدعو من يغشون منازل المومسات إلى أن يجروا أطراف مآزرهم لتطمس آثار أرجلهم على الرمال ، فلا يكونوا عرضة لأن يلتحق بنسبهم من تجيء به البغى .

الفصل الثالث

العزوبة التي يوجبها نظام اجتماعي مقرر

يوجد في كثير من المجتمعات عزوبة اضطرارية يوجبها نظام اجتماعي مقرر. وهي على ثلاثة ضروب: عزوبة مفروضة على كافة الناس في حالات خاصة؛ وعزوبة مفروضة على المشتغلين بوظائف دينية؛ وعزوبة فرضتها بعض النحل الدينية على جميع معتنقيها. وسنقف على كل نوع منها فقرة على حدة.

— ١ —

العزوبة المفروضة على كافة الناس في حالات خاصة

لهذا النوع من العزوبة عدة مظاهر في كثير من النظم والشرائع. ففي بعض البلاد الأوروبية يحرم القانون الزواج على كل فرد يتقاضى إعانة من صندوق الإعانات العامة أو الضمان الاجتماعي؛ لأن فرداً هذا مبلغ عوزه لا يقوى على تكاليف الأسرة (١). بل إن بعض هذه البلاد قد حرم الزواج تحريما باتا ولم يجز إجراء عقده في كل حالة لا يثبت فيها قدرة الطرفين على احتمال الأعباء المادية التي تقتضيها حياة الزوجية (٢).

والشريعة الإسلامية نفسها تحظر الزواج على كل رجل غير قادر على أعبائه، لقوله عليه السلام «من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء (٣)». أي من قدر على مستلزمات الزواج فليتزوج، ومن

(١) Westermarck, op. cit. 390.

(٢) Ibid. 390.

(٣) يطلق الوجاء على رض عروق الخصية من غير إخراج فيكون شبيها بالخصاء لأنه يكسر الشهوة، اهـ من المصباح. والمعنى من لم تكن له قدرة على أعباء الزواج فليصم، فإن في الصيام إضعافا للنزوات ووقاية للعفة وصيانة للنفس من الوقوع في المحظور.

لم تكن له مقدرة على ذلك لا يصح أن يقدم على الزواج ، ويستحب له الصيام فإن فى الصيام إضعافا للنزوات ووقاية للعفة وصيانة للنفس من الوقوع فى المحرم(١)

وقد أخذ كثير من العلماء والمصلحين يذيعون فى الناس أن المصاب بمرض وراثى يغلب انتقاله إلى النسل يقضى عليه واجبه الإنسانى ألا يتزوج ، لأنه بزواجه يسيء أكبر إساءة إلى وطنه وإلى نسله . بل لقد أخذوا ينصحون لأولياء الأمور أن يحظروا الزواج على المصابين بهذا النوع من الأمراض . وقد عمل بهذه الوصايا بعض الأمم المتحضرة ، فأخذت تضع قوانين أو تلجأ إلى وسائل أخرى لحظر الزواج على هذا النوع من المرضى أو لتضييق نطاقه أو لمنع التناسل فيه ، فقد أصدرت الحكومة الألمانية فى عام ١٩٣٣ قانونا بتعقيم غير الصالحين للانتاج السليم لمرض جسمى أو عقلى . وعلى الرغم من محاربة الكنائس المسيحية ، وخاصة الكنيسة الكاثوليكية ، لهذه التدابير واعتبارها إياها مخالفة لشرائع الدين المسيحى ، فإن كثيراً من الأمم المسيحية أخذت قبل الحرب العالمية الأخيرة تترسم خطوات ألمانيا فى هذا السبيل . ومن هذه انجلترا نفسها . فقد ألفت حكومتها عام ١٩٣٢ لجنة خاصة لدراسة الوسائل اللازمة لمقاومة ضعف النسل وانحطاط مستواه الصحى . وأشارت هذه اللجنة فى تقريرها الذى قدمته إلى وزارة الصحة فى يوليو عام ١٩٣٣ بتعقيم المجرمين شديدى الخطر (ذاهبة فى ذلك إلى أبعد مما ذهبت إليه الحكومة الألمانية) وبمنع غير الصالحين للبقاء من الزواج (٢) .

وفى معظم الشعوب المتحضرة يحظر الزواج على الرجل والمرأة قبل بلوغ سن معينة تمتد أحيانا إلى نحو العشرين للرجل ومايقرب من ذلك للمرأة . ويعتمد هذا الحظر على أن زواج الصغار الذين لم يبلغوا حد النضج الجسمى والعقلى من شأنه أن ينتج ذرية ضعيفة ويؤدى إلى أضرار اجتماعية واقتصادية بليغة .

---

(١) ومع ذلك فإنه إذا تزوج غير القادر وقع زواجه صحيحا فى الإسلام ، وترتب عليه جميع آثار الزواج الصحيح وإن كان يجوز للقضاء تطليق الزوجة فى بعض هذه الحالات « ينظر فى ذلك كتب الفقه الإسلامى » .

(٢) انظر ذلك كتابنا فى (الوراثة والبيئة) صفحتى ٧٨ ، ٧٩ .

وقد أخذ بهذا المبدأ القانون المصرى الحديث فجعل الحد الأدنى للزواج الذى تقبل الجهات الرسمية تسجيله وتسمع الدعوى بشأنه وتترتب عليه النتائج القانونية ثمانى عشرة سنة للرجل وست عشرة للمرأة .

وقد أخذ كثير من العلماء والمصلحين يذيعون فى الناس أنه لا يصح للشيوخ الذين أدركهم الضعف والوهن وفاتهم عهد الحيوية الجسمية والعقلية أن يتزوجوا لأنهم إن جاءوا بذرية فلن تكون إلا ذرية ضعيفة ضاوية ، ولأنهم بذلك يجنون على سلالاتهم وعلى وطنهم ؛ وأخذوا يحثون المشرعين وأولياء الأمور ليسنوا من القوانين ما يحظر الزواج فى هذه المراحل من العمر .

وقد صدرت فى بعض الأمم فى العصر الحاضر قوانين تحظر الزواج على النساء اللائى يتولين وظائف عامة لا تمكنهن من القيام بأعباء الأسرة ، أو يؤدى زواجهن إلى تقصيرهن فى شئونها . وكان القانون المصرى إلى عهد قريب يحظر الزواج على من يتولين وظائف التدريس فى المراحل الأولى وما فى مستواها .

وتحظر الديانة المسيحية الزواج على المطلق والمطلقة حتى لو كان طلاقهما لسبب مشروع تقره كنيستهما كما ورد فى أنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول : « من يتزوج مطلقة يزنى(١) » ولما ورد فى إنجيل مرقس على لسان المسيح كذلك إذ يقول : من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزنى عليها ؛ وإذا طلقت المرأة من زوجها وتزوجت بآخر ارتكبت جريمة الزنا(٢) . وقد أراد الملك إدوار الثامن ملك انجلترا وامبراطور الهند السابق ؛ أن يتزوج امرأة مطلقة (مسز سمبسون) فوقفت الكنيسة فى وجهه وخير بين أن يمتثل لقواعد الإنجيل ويحتفظ بالعرش أو ينزل على حكم قلبه ويتنازل عن الملك . فآثر التنازل عن العرش فى سبيل تحقيق بغيته . وحدث مثل ذلك أخيراً للأميرة مرجريت أخت ملكة انجلترا الحالية . فقد أرادت أن تتزوج من ضابط أحبته وأحبها (الكابتن تاونسند) فحيل بينها وبين رغبتها ، لأن هذا الضابط قد طلق زوجة له من قبل ؛ وقاعدة

---

(١) انجيل متى إصحاح ٥ ، آية ٣٢ .

(٢) إنجيل مرقس إصحا ١٠ ، آيتى ١١ ، ١٢ .

الكنيسة أن من يتزوج مطلقا يزنى ، مع أن طلاقه هذا كان قد تم وفق الأوضاع المدنية والكنسية نفسها ، لأن زوجته السابقة كان قد ثبت عليها الخيانة الزوجية ، والمذهب البروتستنتى الذى يدين به الإنجليز يبيح الطلاق فى هذه الحالة (١) .

وفى بعض الشعوب والديانات كان يجب على المرأة بعد وفاة زوجها أن تظل عزباء طول حياتها أو مدة معينة بعد وفاته . — فعند السكان الأصليين لجمهورية بيرو بأمريكا الجنوبية كانت الأرامل يظللن عادة طول حياتهن بدون زواج . وكان القانون نفسه والعرف الخلقى يحثان على ذلك . — وعند قدماء الصين كان يعد عملا غير لائق أن تتزوج المرأة بعد وفاة زوجها ؛ وإذا ارتكبت ذلك امرأة من طبقة راقية كان عقابها أن تجلد ثمانين جلدة . وفى هذا تقول حكمهم المأثورة وكتبهم المقدسة : « كما أن الوزير المخلص لايسمح لنفسه أن يخدم ملكين ، كذلك المرأة المخلصة : فإنه لايصح لها أن تتزوج زوجا ثانيا بعد وفاة زوجها الأول » . وتعد هذه القاعدة لديهم من مسلمات عقائدهم المعلومة من دينهم بالضرورة ، ولذلك ينزلونها منزلة التقديس . — وعند قدماء الآريين كان يجب على المرأة أن تحرق نفسها أو تنتحر بطريقة ما عقب وفاة زوجها . وكان معنى ذلك لديهم أنها تقدم نفسها قربانا له . ثم تطور هذا النظام فيما بعد وخفت قسوته ؛ فاقتصر واجب المرأة على هذه الحالة على ألا تتزوج بعد وفاة زوجها ؛ وكان معنى ذلك لديهم أن تظل خالصة له فى حياته وبعد مماته . ولا يزال هذا النظام معمولا به فى معظم بلاد الهند إلى الوقت الحاضر . وفى بعض هذه البلاد يعد أكبر سبة وإهانة للأرملة أن يقال أنها تفكر فى الزواج . وإذا تزوجت أرملة لديهم فإنها ترتكب بذلك فى نظرهم أكبر إثم خلقى وتجب مقاطعتها مقاطعة تامة من جميع أفراد مجتمعها . — وعند قدماء اليونان والرومان كان يعتبر كذلك زواج الأرملة إهانة كبيرة موجهة لزوجها ولروحه . — ولا يزال الأمر كذلك إلى الوقت الحاضر عند صقالبة الجنوب . — وفى العصور المسيحية الأولى كان ينظر بعين الكراهية الشديدة لزواج الرجل الأرمل وزواج المرأة الأرملة ، بل كان يعد ذلك عند المحافظين من المسيحيين

---

(١) انظر بعض التفاصيل فى موضوع الطلاق فى المسيحية والإسلام فى كتابنا « حقوق الإنسان فى الإسلام » .

ضربا من ضروب الزنا والسفاح . — وفى بعض الشعوب والديانات كان يجب على زوجات الملوك والأمراء وأفراد الطبقة الراقية أن يظللن بدون زواج(١) . — وتقرر الشريعة الإسلامية أنه لا يجوز لزوجات الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتزوجن بعد وفاته ؛ وفى هذا يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم عند الله عظيما»(٢) .

— ٢ —

العزوبة المفروضة على رجال الدين

وفى كثير من المجتمعات يحظر الزواج حظر تحريم أو كراهة على ذوى الوظائف الدينية وما يمت إليها بصلة أو يشبهها من الوظائف العامة ، كالقسيسين والرهبان ورجال الأكليروس والسحرة والمشرفين على المذابح المقدسة أو على تقديم الأضحية والقرابين للآلهة وأرواح الموتى ... وهلم جرا .

وقد عثر علماء الإتنوجرافيا على مظاهر كثيرة من هذا النظام لدى كثير من الشعوب البدائية نفسها . فعند قبائل التلنكت Tlinkit يعتقد أن الساحر الذى لا يبتعد عن النساء ستقتله الأرواح نفسها التى تقوم بحراسته . — وفى بعض عشائر الجوارانيين Guaraniens بارجواى (بأمريكا الجنوبية) يتحتم على رجال الدين العزوبة والابتعاد عن النساء طول حياتهم ؛ ومن يتزوج منهم أو يقرب امرأة يفقد وظيفته كما يفقد ثقة الناس به . — وعند السكان الأصليين فى جواتيمالا يأخذ رجال الدين على أنفسهم العهود أن يبتعدوا مدى حياتهم عن قربان النساء . — ولدى الإتشكاتلانيين Ichcatlan يجب على كبير رجال الدين أن يعيش طول حياته فى داخل معبده وألا يقرب النساء ؛ فإن انحرف عن هذا السبيل قطع إربا إربا وعلقت أعضاؤه ليكون عبرة لسواه ممن يخلفه . — وعند قبائل الأزتك Aztèques

---

(١) انظر فى موضوع تحريم الزواج على الأرملة فى الشعوب السابق ذكرها وفى غيرها : Westermarck, op, cit. 434, 435.

(٢) سورة الأحزاب آية ٥٣ .

(وهم السكان الأصليون للمكسيك) كان يجب على الكاهنات والمشرفات على شئون المعابد ألا يتزوجن ولا يقربن الرجال ؛ وحتى فى أثناء أدائهن لوظائفهن الدينية كان يجب عليهن أن يظللن بعيدات عن الرجال وأن يغضضن من أبصارهن حتى لا تقع أعينهن على واحد منهم . فإن انحرفت إحداهن عن هذا المنهج كان عقابها الإعدام . وإذا لم يكشف الناس جرمها ولم تقر به وجب عليها فيما بينها وبين ربها أن تكفر عنه بالصوم وتعذيب الجسم حتى تتقى بذلك ما يصبه الإلاه من عذاب فى الدنيا نفسها على مقترفات هذا الإثم إذ يبتليهن بتقرح الجلود وتعفن الأجسام . — وفى اليوكاتان Youcatan كان يحظر على الكاهنات المشرفات على عبادة الشمس الزواج وقربان الرجال فى أثناء مدة معينة ، ثم يباح لهن بعد انقضاء هذه المدة ما يباح لغيرهن من النساء . أما اللائى كن ينذرن أنفسهم لخدمة المعابد وتعهد النار المقدسة فكان يجب عليهن أن يظللن طول حياتهن عزبات بعيدات عن الرجال ، فإن زلت إحداهن أعدمت رميا بالسهام . — وعند عشائر الإنكا Incas فى پيرو كان يجب على العذارى اللائى وهبن أنفسهن للشمس والإشراف على معابدها أن يظللن عزبات طول حياتهن وألا يقربن الذكور ، بل كان يحرم عليهن حتى مجرد الحديث مع الرجال . وكانت تسير لديهم على هذا المنهج نفسه ، ولكن فى صورة اختيارية وبقصد التقرب للآلهة ، طائفة الأميرات والنبيلات ، فينذرن لله أن يظللن بعيدات عن الرجال طول حياتهن . وكان الناس ينظرون إلى هذا الصنف الأخير من النساء نظرة إجلال وتقديس ، ويطلقون عليهن اسم « أوكلو » Ocllo ، وهو اسم كانوا يطلقونه على من بلغ أرقى منزلة فى القداسة الدينية . وبمقدار هذا الاحترام كانت القسوة فى عقاب من تنكث بعهدها منهن . فكانت تحرق حينئذ حية أو يقذف بها فى الماء لتموت غرقا أو يلقى بها إلى الأسد الجائعة . — وعند عشائر الجوانش Guanches فى جزائر كارانيا Caranis يحرم الزواج حرمة مؤبدة على طائفة من الفتيات يطلق عليهن اسم الموجاد Mogades أو الحاريماجاد hariymagades وتتمثل وظائفهن فى الإشراف على شئون المعبد والشعائر الدينية تحت إشراف الحبر

الأكبر . وكان يحرم الزواج كذلك لدى هذه العشائر على طائفة أخرى من الفتيات كن يقمن بصب المياه فوق رءوس الأطفال عقب ولادتهن ، وكان ذلك إجراء دينيا هاما لدى هذه الشعوب ؛ ولكن حظر الزواج على هذه الطائفة الأخيرة كان موقوتا بمدة اضطلاعهن بوظائفهن . فكان لكل منهن إذا شاءت أن تترك وظيفتها ، وحينئذ كان يحل لها ما يحل لغيرها من النساء . — وفى رأس بدرون فى غينيا السفلى Cap Padron en Basse - Guinée كان يجب على من يخلع عليه لقب القسيس — الملك ، أن يعتزل الناس ويتخذ له فى غابة مجاورة منزلا يعتكف فيه طول حياته . فلا يسمح له بالخروج منه ولا يباح له أن يمس امرأة فى داخله(١) .

وقد وجد هذا النظام كذلك لدى كثير من الشعوب المتحضرة من الجنس الآرى فى العصور القديمة وخاصة الرومان واليونان والفرس والهنود .

ففى أقدم عصور الرومان أنشأ الملك نوما بومبيليوس(٢) نظام الكاهنات المشرفات على شئون المعابد ، وكان يجب على كل واحدة منهن أن تظل عزباء فى أثناء المدة التى تشرف فيها على شئون المذبح وتقديم الأضحية والقرابين الآلهة وإقامة ما يتصل بذلك من شعائر الدين . فإن قاربت واحدة منهن رجلا فى أثناء ذلك أدرجت فى الأكفان ودفنت حية فى لحد ضيق بدون احتفال بجنازتها ولا صلاة على جثمانها ولا قيام على قبرها . وأما بعد انقضاء هذه المدة فكان يباح لكل واحدة منهن أن تترك وظيفتها ؛ وحينئذ كان يباح لها ما يباح لسائر النساء ؛ غير أن معظمهن كن يؤثرن البقاء فى خدمة معابدهن .

---

(١) انظر تفاصيل هذا النظام فى الشعوب البدائية التى ذكرناها وفى غيرها فى كتاب :
Westermarck, op. cit. 391, 392.

(٢) هو الملك الثانى من ملوك روما فى العصور السابقة للتاريخ وفق ما تحدثنا به أساطير الرومان (٧١٤ — ٦٧١ ق م) .

وعند قدماء اليونان كان من المقرر فى كثير من المدن أن تظل الكاهنات بدون زواج طول حياتهن أو على الأقل فى أثناء قيامهن بوظائفهن . ويروى ترتوليان Tertullien (١) أنه فى مدينة آچيوم Aegium اليونانية كان يشرف على معبد الإلاهه چينون Junon (٢) فتاة عذراء يحرم عليها الزواج ؛ وأن الكاهنات اللاتى كن يشرفن على معبد الإلاه « أپولو »(٣) Appolon بدلفيا Delphes ، وكن ينبئن الناس بما سيحدث لهم بما يتلقين من وحى من الإلاه ، كان يحرم عليهن الزواج حرمة مؤبدة ؛ وأن المشرفات على معبد الإلاهة سيريس Crées(٤) واللاتى كان يطلق عليهن اسم « الأرامل » على الرغم من أنهن كن متزوجات ، كان لايحل لهن فى أثناء قيامهن بوظائفهن الاتصال بأزواجهن ولا بأحد من جنس الذكور على الإطلاق ، حتى لقد كان يحظر عليهن أن يقبلن أبناءهن . وفى بعض المدن اليونانية كان يخصى القسس الذين كانوا يشرفون على شئون بعض المعابد حتى لا يتاح لهم الزواج ولا قربان النساء . ومن هؤلاء كان يتألف السدنة المشرفون على معابد الإلاهة أرتيمس (٥) فى إفيزيا Arthémis à Ephèse

(١) من كبار فقهاء الكنيسة المسيحية ١٦٠ — ٢٤٠ م تقريبا .

(٢) هذا هو اسمها اللاتينى ؛ أما عند اليونان فكانت تسمى « هيرا » Héra ، وهى زوجة جوبيتير أوزوس ، كبير آلهة اليونان ، وهى إلاهة الزواج (انظر ص ٤١ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

(٣) هو ابن جوبيتير ، وهو من أشهر آلهة الإغريق . وقد أقاموا له فى مختلف مدنهم ، وخاصة فى دلفيا ، معابد كثيرة كان يحج إليها اليونان وغيرهم ليؤدوا مناسكهم ويشهدوا منافع لهم ويسألوا الكاهنات عما يضمره لهم الغيب . وهو من أكثر الآلهة وظائف : فهو إلاه التنبؤات والاخبار بالغيب والطب والشعر والفنون والموسيقى والأنعام والتجارة والقرصنه وحامى التجار واللصوص والقرصان (انظر فى ذلك ص ٤٥ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

(٤) أو « ديميتير » Démetère وهى إلاهة الخصب والزراعة والأرض عند قدماء اليونان ، (انظر ص ٤٩ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

(٥) أو « ديانا » Diana وهى بنت جوبيتير ، إلاهة الصيد ، وقد طلبت إلى أبيها أن تظل عزباء ، وأجابها إلى رغبتها ، وجعلها ملكة على الغابات (انظر ص ٤٦ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

ومعابد الإلاهة سيبل[1] فى فريجيا Cybèle de Phrygie .

وعند قدماء الفرس كان يجب على الكاهنات المشرفات على معابد الشمس ألا يقربن الرجال .

وعلى الرغم مما كان للزواج فى نفوس الهندوكيين البرهميين من منزلة كبيرة فإنهم كانوا يرون العزوبة واجبة على كل من يصل إلى منزلة القديسين من رجال الدين . وكان يجب لديهم كذلك على « البرهما كارين » Brahmacarin ، وهو التلميذ فى أدوار دراسته الدينية قبل أن يصل إلى مرتبة القسيس ، أن يظل أعزب وألا يقرب النساء حتى يفرغ من دراسته هذه . وقد اتسع نطاق هذا النظام فى الديانتين الهندوكيتين الأخريين وهى الچينية والبوذية Jaïnisme, Boudhisme ففى الديانة الچينية كان يحظر على الراهب حظراً باتاً أن يتزوج وأن يتمتع بأية متعة جنسية مع أى كائن « إلا ما كان هذا الكائن أم إنسا أم حيوانا » (حسب النص الوارد فى كتبهم المقدسة) ، وكان يجب عليه أن يقاوم شهواته وألا يخوض فى أى حديث يتعلق بالنساء ، كما كان يحرم عليه مجرد التفكير أو التأمل فى تكوين المرأة الجسمى . وترى الديانة البوذية أن اللذائذ الجنسية تتعارض كل التعارض مع القدسية والحكمة . ومن أجل ذلك « ينبغى لكل عاقل حكيم (حسب النص الوارد فى كتبهم المقدسة) أن يبتعد عن الزواج ويتحاشى الوقوع فيه . كما يتحاشى أن يلقى بنفسه إلى التهلكة فى موقد من الفحم المتوهج » ولذلك تروى أساطيرهم أن أم « بوذا » التى يعتبرونها أطهر امرأة من بنات حواء ، لم تنجب ولدا

---

(١) أو « ريا » Rhéa وهى زوجة الإلاه ساتورن Saturne أو كرونوس Cronos (زحل) وأم جوبيتير ، ويرجع إليها الفضل فى تخليص ابنها جوبيتير من أنياب أبيه ، فبعد أن وضعت ابنها فى جزيرة كريت عادت إلى زوجها بحجر مدثر بلفائف ظنه ساتورن المولود الجديد فالتهمه ، لأنه كان قد أخذ على نفسه أن يأكل كل مولود ذكر يولد له حتى يتقى المصير الذى تنبأ له به العرافون من أن أحد أبنائه سيقتله ويخلفه على العرش (انظر ص ٣٩ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

غيره ، وأنها حملت به بدون أن يمسسها بشر . وتفرض العزوبة فرضا فى الديانة البوذية على كل كاهن ، بل يحرم عليه كل اتصال جنسى ، حتى لو كان مع حيوان ، حسب النص الوارد فى أسفارهم الدينية . وكل كاهن ينحرف قيد أنملة عن واجباته فى هذا الصدد يجرد من جميع وظائفه الدينية ويطرد من مجمع الإكليروس . — وفى التبت يجوز الزواج لطبقة من رجال الدين ، وهى الطبقة التى يطلق على أفرادها اسم « اللاما » Lamas وإن كان غير المتزوجين منهم أكبر منزلة وأحق بالإجلال من المتزوجين . وأما الكهنة الذين يطلق عليهم اسم النونيين Nonnes فيحرم عليهم الزواج وكل اتصال جنسى(١) .

وقد انتقل هذا النظام إلى الصين مع ما انتقل إليها من الديانات والمعتقدات الهندية والآرية . فالقانون الصينى يوجب العزوبة على كل قسيس بوذى أو تاويسى Taoïste(٢) . ويعد التاويسيون فى قائمة الخالدين من أفراد نحلتهم بعض نساء امتزن عن غيرهن بالمبالغة فى حياة الزهد والابتعاد عن جميع لذائذ الجنس(٣) .

وساد هذا النظام كذلك لدى كثير من الشعوب المتحضرة من الجنس السامى فى العصور القديمة . ففى كثير من معابد « عشتروت Astarté, Astaroth (وهى إلاهة السماء عند كثير من الشعوب السامية القديمة . وكان لها معابد عندهم جميعا وخاصة عند الفينيقيين واليمنيين والآراميين) كان يتألف الكهنة من جماعة من الخصيان

---

(١) انظر تفاصيل هذا النظام فى الشعوب الآرية التى ذكرناها وغيرها فى :

Westermarck; op. cit. 392—394.

(٢) التاوسية Taoïsme ديانة شعبية منتشرة فى الصين . وهى أمشاج من عبادة الأرواح وعبادة مظاهر الطبيعة ومن بعض الخرافات والمعتقدات السحرية ومن مبادىء فيلسوف الصين الشهير لاوتسى Lao - Tseu (نشأ فى القرن السادس ق م . وقد خلف أسفارا كثيرة من أشهرها كتابه فى « الطريق إلى الفضيلة ») .

(٣) انظر تفاصيل هذا النظام فى الصين القديمة فى :

Westermarck, op. cit. 394.

كما كان الشأن فى معابد الإلاهتين أرتيمس وسيبيل عند اليونان(١) .

ومنذ العصور المسيحية الأولى كان يحظر على القسيس أن يتزوج امرأة توفى عنها زوجها ، كما كان يحظر عليه ان يتزوج مرة ثانية بعد وفاة زوجته . وفى أوائل القرن الرابع الميلادى أصدر مجمع « ألفيرا » Elvira (فى أسبانيا) قراراً بتحريم الزواج والابتعاد عن كل شهوات الجنس على كبار رجال الكنيسة . وفى أواخر القرن الحادى عشر أصدر البابا جريجوار السابع أمرا بوجوب العزوبة وتحريم الزواج على جميع القسس والرهبان كبارهم وصغارهم . ومع أن هذا القرار قد لاقى فى مبدأ الأمر معارضة شديدة فى كثير من المناطق المسيحية ، فإنه لم يكد ينتهى القرن الثالث عشر الميلادى حتى كان نظاماً مقرراً فى الكنيسة الكاثوليكية ومطبقاً على جميع القسس من الرجال والراهبات من النساء .

— ٣ —

أسباب العزوبة المفروضة على رجال الدين

هذا ويرجع التبتل المفروض على رجال الدين وعلى الراهبات فى المسيحية وغيرها من الأديان إلى عدة أصول وتقوم أسبابه على اعتبارات شتى :

ففى كثير من الشعوب كان ينظر إلى الكاهنة على أنها زوجة للإلاه الذى وقفت نفسها على معبده ، فكان يحرم عليها لذلك أن تكون فى الوقت نفسه زوجة لإنسان . وقد ساد هذا الاعتقاد لدى كثير من الشعوب البدائية والمتحضرة .

فعند عشائر الإنكا Inca (وهم السكان الأصليون لجمهورية بيرو فى أمريكا الجنوبية) كان يعتقد أن كل عذراء تنذر نفسها للشمس (وكانت الشمس

---

(١) انظر صفحتى ١٢٠ ، ١٢١ .

من كبار آلهتهم ومن جنس الذكور فى نظرهم) تصبح زوجة لهذا الكوكب . ومن أجل ذلك كان الاتصال بواحدة من هؤلاء يعد فى نظرهم أكبر جريمة يمكن أن يرتكبها إنسان فى جنب الله . — وفى ساحل الذهب كان يجب على الكاهنات أن يظللن بدون زواج ؛ لأن كل واحدة منهن كانت زوجة للإلاه الذى تقوم بخدمة معبده ؛ فما كان يجوز لها مع ذلك أن تجمع بينه وبين زوج آخر(١) .

وفى بعض معابد الإلاه چوپيتير (أوزوس . — وهو كبير آلهة الإغريق والرومان) فى بلاد اليونان ، كان يتحتم على عذراء المعبد أن تبيت فى ساحته . وكان يعتقد أن الإلاه قد اصطفاها على نساء العالمين واختارها لمتعته وأنه ينزل إليها من علياء سمائه متمثلا لها بشرا سويا ليقضى معها إربته ؛ ولذلك كان يحرم عليها أن تتزوج أو تتصل اتصالا جنسيا بأى فرد من البشر . — ويرى المؤرخ اليونانى هيرودوت أن هذا الوضع يشبه ما كان يجرى عليه العمل فى مدينة طيبة فى عصورها الفرعونية القديمة حيث كان يجب على فتاة المعبد أن تبيت فيه كما كان يحظر عليها حظرا باتا أن تتصل بالرجال . وكان قدماء المصريين يعتقدون أن فرعون ابن الله بالمعنى الحقيقى لا المجازى ، أى أنه قد نشأ من اتصال الإلاه بأمه . ولذلك تطلق النصوص المصرية القديمة على الملكة إسم « الزوجة المقدسة » أو « الزوجة الإلاهية » (نيترهنت neter - hent = épouse divine) لأنها متهيأة لأن تعلق من الإلاه وتأتى منه بفرعون لمصر يخلف فرعونها الحالى . وكان السائد فى عقائد المصريين ، على ما يروى المؤرخ پلوطارخوس ، أن المرأة يمكن أن تعلق بمجرد اتصال جسمها بروح القدس(٢) .

---

(١) انظر تفاصيل هذا الموضوع فى الشعوب البدائية التى ذكرناها وغيرها فى :

Westermarck, op. cit. 397.

(٢) انظر تفاصيل هذا الموضوع فى الشعوب المتحضرة القديمة التى ذكرناها وغيرها فى :

Westermarck, op. cit. 397, 398.

وقد انتشر فى العصور المسيحية الأولى أفكار كثيرة من هـذا القبيل . فالقديس سيبريان St syprien(١) يتحدث عن نساء نذرن أنفسهن للمسيح « فأصبح وحده مولاهن وزوجهن ، وأصبحن يرتبطن معه بزواج روحى . وقد عزفن عن متع الجسم مع الأناسى لأنهن قد وهبن للمسيح جسومهن وأرواحهن» (٢) . — وقد ثار هـذا القديس ثورة عنيفة على ما كان يحدث أحيانا من اتصال بعض القسس ببعض الراهبات ومسا كنتهم لهن باسم الاتصال الروحى والمسا كنة الزوجية . وفى ذلك يقول . « إذا قدم الزوج فوجد امرأته مع رجل آخر فى فراشه ، فإنه يغضب ويثور ، بل لقد تذهب به الغيرة إلى استخدام الحسام . فكيف يكون الحال إذا كان هذا الزوج هو المسيح نفسه ؟! كيف يكون الحال إذا باغت المسيح عذراء قد نذرت نفسها له تنام مع أحد الرجال؟! وأى عذاب ينزله بمن ينتهك حرمته إلى هذا الحد؟! إن من يقترف جرما كهذا لا يرتكب جريمة الزنا معتديا على فراش زوج من البشر ، بل يرتكبها منتهكا فراش المسيح نفسه(٣) » . — وفى أحد الأناجيل غير المعتمدة عند المسيحين ، وهو الإنجيل المشهور لديهم باسم « إنجيل متى غير المعتمد L'Evangile de Pseudo Mathieu أن مريم كانت من العذارى اللاتى نذرن أنفسهن للإله(٤) ، ولذلك لم تتزوج ولم يمسها بشر(٥) . ويتفق هذا من بعض نواحيه مع ما ورد فى القرآن الكريم

---

(١) من آباء الكنيسة اللاتينية ، وقد استشهد سنة ٢٥٨ م .

(٢) Westermarck, op. cit, 398.

(٣) Ibid.

(٤) Ibid.

(٥) فى إنجيل متى المعتمد عند المسيحيين أن مريم كانت زوجة (أو خطيبة كما عبر عنها فى آية أخرى) ليوسف النجار ، وأنها حملت بالمسيح من قبل أن يقربها يوسف ، فخالج يوسف الشك فى أمرها ، وأراد أن يفارقها بدون فضيحة . فبعث الله إليه ملكا أمره بأن يمسك عليه زوجه ، وأنبأه أنها قد حملت من روح القدس وأنها ستلد غلاما زكيا ، وأن هذا الغلام سيخلص شعبه من خطاياه ، وطلب إليه أن يسميه عيسى (إنجيل متى ، الإصحاح الاول ، آيات ١٩ — ٢١) .

فى هذا الصدد إذ يقول : « إذ قالت إمرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا ، فتقبل منى إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً » (١) .

وفى كثير من الديانات يعتقد أن الاتصال الجنسى نفسه ينجس المرأة والرجل كليهما . فعند قدماء البابليين والعبريين والعرب وغيرهم من الشعوب يعتبر قربان الرجل للمرأة منجسا لهما معا ، فلا يطهران إلا بالغسل . وفى كثير من الديانات يحرم على الجنب أداء كثير من الأعمال الدينية ودخول كثير من الأماكن المقدسة . بل لقد يصل التحرج فى هذا الصدد إلى أبعد من ذلك ، فيعتبر مجرد لمس الرجل للمرأة أو مجرد حديثه معها منجساً لكليهما ومحتاجا إلى التطهير . فقد روى المؤرخ اليونانى هيرودوت أنه كان من المحرم عند قدماء المصريين وقدماء اليونان على السواء أن يتحدث الرجال مع النساء فى المعابد والأماكن المقدسة ، بل لقد كان حديث الرجل مع المرأة خارج المعابد يعتبر منجسا لكليهما ، فلا يجوز لأحدهما دخول المعبد إلا بعد أن يغتسل بالماء ويتطهر من هذا الحديث . — وقد وردت هذه التعليمات فى كتاب « الموتى » نفسه ، وهو من أهم الكتب المقدسة عند المصريين (٢) . — وعند اليهود لا يجوز لجنب أن يدخل المعبد إلا بعد أن يتطهر (٣) . — والإسلام نفسه يعتبر قربان الرجل للمرأة منشئا للحدث الأكبر وموجباً للغسل على كليهما ، فلا يجوز لأحدهما الصلاة ولا قراءة القرآن ولا دخول المسجد إلا بعد أن يتطهر . بل إن بعض المذاهب الإسلامية

---

(١) سورة آل عمران آيتى ٣٦، ٣٧ .

(٢) Westemarck, op, cit. 400.

(٣) Ibid.

ليرى أن مجرد لمس الرجل المرأة ناقضا للوضوء فى جميع الأحوال أو فى بعضها (١) . ويحرم الإسلام كل إتصال جنسى فى أثناء أداء فريضة الحج وفى أثناء الصيام وفى أثناء الاعتكاف فى المساجد . وفى الحج يقول الله تعالى فى كتابه الكريم « الحج أشهر معلومات ؛ فمن فرض فيهن الحج فلا رفث (٢) ولا فسوق ولا جدال فى الحج » (٣) . وفى الصوم والاعتكاف يقول الله تعالى : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل ، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد : تلك حدود الله فلا تقربوها ؛ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون» (٤) . — والتعاليم المسيحية توجب على من يريد الاشتراك فى بعض الحفلات المقدسة وفى أعياد الكنيسة وبعض الأعمال الدينية أن يهيء نفسه لها بالامتناع عن كل اتصال جنسى قبل حلول موعدها بيوم أو أكثر فلا يجوز مثلا لأحد الزوجين أن يشترك فى أى عيد من الأعياد الكنسية إذا كان فى الليلة السابقة لهذا العيد قد اتصل بزوجته (٥) . — وقد تطورت هذه الأفكار فى بعض الأمم وبعض الديانات ، فأصبح من المقرر أن عملا هذا شأنه فى إحداث النجاسة لا يصح أن يأتيه رجال الدين . ومن ثم حرم عليهم الزواج ووجبت عليهم العزوبة ومجانبة كل اتصال جنسى .

---

(١) يشترط الإمام مالك أن يقصد اللامس اللذة أو أن يجدها عند اللمس . وأما أبو حنيفة فلا يعتبر اللمس ناقضا للوضوء ولو صاحبه قصد اللذة أو صاحبته اللذة نفسها .

(٢) من معانى « الرفث » قربان النساء ، وهو المقصود فى الآية .

(٣) سورة البقرة آية ١٩٧ .

(٤) سورة البقرة آية ١٨٧ .

(٥) Westermarck, op. cit. 401

وفضلا عن هذا كله ، فإنه من المقرر أن شئون الدين من أسمى الشئون الروحية وأعظمها قيمة وأرقاها منزلة ، وأنها من أبعد الأمور عن مظاهر المادة وشئون الجسم . ومن ثم جاءت الفكرة بأنه لا يجوز أن يتصدى للقوامة على هذه الشئون إلا من تجرد عن مظاهر المادة ، وبعد عن لذائذ الجسم ، وعزف عن زينة الحياة ، وصفت نفسه حتى أصبح روحا خالصة . ولما كانت الشئون الجنسية من أشد الأمور إمعانا في المادة ولذة الجسم ، لذلك كانت على رأس الأمور التي تحظر على القوامين على شئون الدين في كثير من الديانات .

وقد ارتبطت شئون الدين والتصوف في أذهان كثير من الناس بالتقشف وتعذيب الجسم وحرمانه من مطالبه . ومن ثم نشأ الحث على الصيام والزهد في شئون الدنيا والرهبانية والاعتكاف في المعابد والعكوف على الصلاة والعبادة والندب إلى التهجد وقيام الليل ، كما نشأ تعمد تعذيب الجسم في بعض فرق الصوفية في الإسلام وغيره . وغنى عن البيان أن الامتناع عن الزواج مظهر عام من مظاهر هذا الحرمان .

ويضاف إلى هذا كله أن الزواج وما يضعه على كاهل المتزوج من أعباء وما يقتضيه من كدح في الحياة لسد نفقات الأسرة وتوفير ما تحتاج إليه في حياتها المادية والمعنوية ... كل ذلك من شأنه أن يستأثر بقسط كبير من جهود الإنسان ونشاطه وتفكيره . وأمر هذا شأنه يعتقد في كثير من الشعوب أنه لا يوائم رجال الدين الذين ينبغي أن يستأثر التأمل والعبادة والإرشاد والتعليم بجميع ما يستطيعون بذله من جهد ونشاط وتفكير .

— ٤ —

العزوبة التي تفرضها بعض النحل الدينية على جميع معتنقيها

لا نكاد نعثر على أمثلة صريحة لهذا النوع من النحل إلا في الديانتين اليهودية والمسيحية.

ففي القرن الثامن قبل الميلاد ظهر عند اليهود اتجاهات من هذا القبيل يحمل لواءها جماعة الحسديين أو الإيسينيين أو الآزيين Esseniens . فقد كان من أهم مبادىء هذه الفرقة، حسب ما يحدثنا به المؤرخ الشهير يوسف Josephe « الرغبة عن جميع متع الجسم، والنظر إليها على أنها شرور، واعتبار التبتل والبعد عن النساء من أمهات الفضائل، ومن ثم حرموا على أنفسهم الزواج » (١).

---

(١) انقسم بنو اسرائيل في العصور الأخيرة السابقة الميلاد إلى ثلاث فرق: فرقة الفروشيين (فروشيم Pharisiens)؛ وفرقة الصادوقيين (صادوقيم Sadducéens)؛ وفرقة الحسديين (حسديم Esséniens . — ومعنى حسديم المشفقون، والياء والميم علامة الجمع في العبرية). وقد امتازت هذه الفرقة الأخيرة عن سائر فرق اليهود في الشئون الاقتصادية باتجاهات شيوعية عرضنا لها بالتفصيل في كتابنا عن قصة الملكية في العالم » (انظر صفحتي ٧٠ — ٧١ من الطبعة الثانية من هذا الكتاب). وامتازت عنها في الشئون الدينية بالإكثار من الغسل والوضوء وبتحريمها تقديم الأضحية والقرابين وبالدعوة إلى الزهد والتقشف ومحاربة البذخ والترف والحياة الناعمة. وقد طبقت مبادئها هذه على أفرادها الذين اعتزلوا المجتمع الإسرائيلي وعاشوا جماعات حول شواطىء البحر الميت. واقتضت مبادئهم في التقشف والزهد أن يحرموا على أنفسهم استخدام الذهب والفضة واقتناءها والتعامل بهما. — هذا، وقد وصلت إلينا أخبار هذه الفرقة عن طريق ما كتبه فيلون الفيلسوف Philon ويوسف المؤرخ Josephe وكلاهما من رجال القرن الأول الميلادي. (انظر كذلك المراجع التي أحلنا عليها في صدد هذه الفرقة في كتابنا « قصة الملكية في العالم » ص ٧٠ من الطبعة الثانية والتعليق المدون في هذه الصفحة).

ومع أن هذه المبادىء الحسدية لم يكن لها أثر كبير فى الديانة اليهودية نفسها ولم تطبق إلا فى نطاق جماعة الحسديين وحدهم وفى مواطن منعزلة عن الناس ، فإنها قد تركت آثاراً ذات بال فى الديانة المسيحية التى جاءت بعد ذلك . فقد ساد فى المسيحية الاعتقاد بأن العزوبة أمثل من الزواج وأن الحصور (١) أدنى إلى الله ممن يقرب النساء . وفى هذا يقول بولس الرسول فى رسالته إلى أهل قورنثة : « إن من يزوج ابنته يأت عملا طيبا ، ولكن من لا يزوجها يأت ما هو خير(٢) وإنه من الخير للرجل أن يظل أعزب إلا إن خاف الوقوع فى الخطيئة (٣) . وإنى لأنصح الأيامى (٤) من الرجال والنساء أن يقتدوا بى فيظلوا على ماهم عليه ؛ فإن لم يقو أحدهم على العفة ، فلا مندوحة له حينئذ عن الزواج : فلأن يتزوج خير من أن يكون وقوداً لنار جهنم » (٥) .

ويعلق ترتوليان Tertullien (٦) على هذه الفقرة الأخيرة من رسالة بولس الرسول ، فيقول : « إن الأفضل من حالتين لا يلزم أن يكون خيراً فى ذاته . فلأن يفقد الإنسان عيناً واحدة أفضل من أن يفقد كلتا عينيه . ولكن فقد عين واحدة ليس من الخير فى شىء . فكذلك الزواج : فهو لمن لم يقو على العفة أفضل من أن يحرق بنار جهنم . ولكن الخير أن يتقى الإنسان الأمرين معا ، فلا يتزوج ولا يعرض نفسه لعذاب النار . وإن قصارى ما يحققه الزواج

---

(١) الحصور من لا يأتى النساء وهو قادر على ذلك والممنوع منهن أو من لا يشتهيهن ولا يقربهن . اهـ من القاموس المحيط . وبالمعنى الأول وحده نستخدم هذا الوصف فى بحثنا هذا .

(٢) الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة ، إصحاح ٧ ، آية ٣٨ .

(٣) الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة ، إصحاح ٧ ، آيتى ١ ، ٢ .

(٤) الأيم العزب رجلا كان أو امرأة .... والجميع فيهما أيامى . اهـ مصباح .

(٥) الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة إصحاح ٧ آيتى ٨ ، ٩ .

(٦) من كبار رجال الكنيسة المسيحية (١٦٠ — ٢٤٠ م) .

أنه يعصم الفرد من الخطيئة ، على حين أن التبتل يروض المرء على أعمال القديسين ، ويذلل له السبيل إلى منزلة الإشراق ، ويتيح له أن يأتي بالمعجزات . فجسم المسيح نفسه قد جاء من بتول عذراء . والقديس يوحنا المعمدان Jean Baptiste (يحي بن زكريا) والرسول بولس وجميع إخوانه الحواريين الذين سجلت أسماؤهم في سفر الخلود آثروا التبتل وحثوا الناس عليه . وقد استطاعت مريم البتول أخت موسى(١) أن تعبر البحر هي وجميع من كن يسرن خلفها من النساء فانشق لهن فيه طريق يبس وانتهين إلى الساحل الآخر سالمات . والقديسة البتول تكلا Thècle قد ألقى بها الكفار إلى الأسد الجائعة فوجمت الأسد أمامها ورقدت تحت قدميها بدون أن تمسها بسوء(٢) ... وقد فتح السيد المسيح للخصيان أبواب السماء لأن حالتهم قد باعدت بينهم وبين قربان النساء ... ولو أن آدم لم يعص ربه لعاش طاهراً حصورا ولتكاثر النوع الإنساني بطرق أخرى غير هذه الطرق البهيمية ولعمرت الجنة بفصيلة من الطاهرين الخالدين(٣) » .

---

(١) هي التي ورد ذكرها في القرآن في قوله تعالى : « وقالت لأخته قصيه فبصرت به من جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » سورة القصص آيتي ١١ ، ١٢ .

(٢) تذكر القصص المسيحية أن الشهيدة تكلا Thècle كانت من السابقات الأوليات الى اعتناق المسيحية في القرن الأول الميلادي على يد بولس الرسول ، وأن الله قد نجاها بمعجزة منه من كثير من أنواع العذاب الذي امتحنها به الوثنيون ليثنوها عن عقيدتها . ويحتفل المسيحيون بذكراها في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر .

(٣) Tértullien, De Monogamia 3 cité par Westermarck, op. cit, 395, 396 . — وقد وافق ترتوليان على ما تضمنته الفقرة الاخيرة الخاصة بآدم ونسله جريجوار النيسي ويوحنا الدمشقي Grégore de Nysse, Jean de Damas وخالفه في ذلك توماس الإكويني St Thomas d'Aquin الذي يرى أنه منذ بدء الخليقة قد جعل الله بقاء النوع وانتشاره متوقفين على الاتصال الجنسي . ولكن هذا الاتصال — في نظر توماس الإكويني — لم يكن في بدء الخليقة منطويا على اللذة الجنسية التي امتزجت به بعد أن هبط آدم من الجنة Westermarck, op. cit. 396 .

وينظر كثير من فقهاء الكنيسة المسيحية إلى هذه الحقائق على أنها من الأمور المسلمة فى الدين بالضرورة ، أى التى لا يجوز إنكارها ولا الشك فيها ، حتى أن مجمع مديولاننس Médiolanense المسيحى قد حكم فى أواخر القرن الرابع الميلادى على الراهب جوفينيان Jovenien بالطرد من الكنيسة لأنه عارض المبدأ المسيحى الذى يقرر أن التبتل خير من الزواج (١) . وينظر هؤلاء الفقهاء كذلك إلى الزواج على أنه مجرد ضرورة لبقاء النوع الإنسانى ولصيانة الفرد من الفاحشة . ومن ثم لا ينبغى فى نظرهم للمسيحى المتزوج أن يطلق لنفسه العنان فى إشباع شهواته ، بل ينبغى أن يفيـــد من ذلك بقصد واعتدال وفى الحدود التى تحقق الذرية والنسل ، فيكون شأنه شأن الزارع الذى إذا بذر البذرة انتظر الحصاد بدون أن يلقى فى الأرض بذوراً أخرى (٢) » .

وقد ذهبت فرقة المارسيفيين Marcionites (وهى فرقة مسيحية اعتنقت مذهب مرسيون Marcion)(٣) إلى ماهو أبعد من ذلك ، فحرمت الزواج تحريما

---

(١) westermarck, op. cit. 396.

(٢) Ibid.

(٣) ولد مارسيون هذا ببلدة سينوب Sinop (ميناء على البحر الأسود فى تركيا) فى أوائل القرن الثانى الميلادى . وكان أبوه قسيسا ، ونشأ قسيسا كذلك . ولكن حكم عليه بالطرد من الكنيسة لمذهبه المنحرف عن أصول المسيحية . ويقوم مذهبه على اعتقاد أن العالم السفلى من صنع الإلاه العادل Dieu Juste أو الإلاه ديميورج Démiurge وهذا الإلاه هو الذى اتخذ من بنى إسرائيل شعبا مختارا وأنزل عليهم التوراة . ولكن سلطان هذا الإلاه قد انتهى عند ما ظهر الإلاه الخير Dieu Bon متمثلا فى المسيح وخلص الإنسانية من خطاياها ؛ فحينئذ بطلت كل أعمال الإلاه السابق . — ومن ثم يقوم هذا المذهب على اطراح العهد القديم (كتب اليهود المقدسة) فى جملته وتفاصيله . أما العهد الجديد (كتب المسيحيين المقدسة) فإن هذا المذهب لا يعترف منه إلا بسفرين : أحدهما انجيل لوقا ؛ والآخر رسائل بولس الرسول . ولم يعترف بهذين السفرين نفسيهما إلا بعد أن أدخل عليهما تعديلات كثيرة — وعلى الرغم من الحرب الشعواء التى شنتها الكنيسة وشنها المحافظون من كتاب المسيحيين على هذا المذهب ، فإنه قد انتشر وتبعه خلق كثير فى إيطاليا وأفريقيا ومصر . وظل كذلك حتى منتصف القرن الثالث ثم أخذ يضمحل بعد ذلك حتى انقرض انقراضا تاما فى القرن الخامس الميلادى .

باتا على جميع أفراد نحلتها ، كما فعلت فرقة الحسديين من اليهود ، وأوجبت على كل متزوج يرغب فى اعتناق مذهبها من الذكور والإناث أن يفترق عن زوجه ؛ وبدون ذلك لا يمكن قبوله ولا تعميده .

ومع أن الفرق المسيحية الباقية إلى عصرنا الحاضر لم تأخذ بهذا المذهب ، فإن نظرة المسيحية إلى التبتل على أنه الحالة المثلى وإلى الزواج على أنه مجرد ضرورة ، قد أدت بالتدريج إلى نظام العزوبة المفروض على القسيسين والرهبان فى المذهب الكاثوليكى والذى تحدثنا عنه فى الفقرة الثانية من هذا الفصل .

أهم مراجع الفصل

مذكورة فى التعليقات

خاتمة

فى غرائب النزعات الاجتماعية الفطرية

عند الحيوان

- ١ -

التعريف بالنزعات الاجتماعية الفطرية

عند الحيوان

توصف النزعة بأنها « اجتماعية » إذا كانت تتصل فى صورة ما بالحياة فى جماعة ، إما لأن الفضل فى نشأتها الأولى يرجع إلى هذه الحياة ، وإما لأن وظيفتها تتصل بناحية من نواحى التنسيق الجمعى أو بقاء المجتمع أو النوع ، سواء اتصلت بمجتمع ضيق كمجتمع الآباء وأولادهم ، أم بمجتمع أوسع من ذلك كمجتمع القطيع .

وتوصف النزعة بأنها « فطرية » إذا تأصلت فى النوع حتى أصبحت تنتقل بطريق الوراثة من الأصول إلى الفروع ، ولو كانت مكتسبة فى نشأتها الأولى(١).

وقد تستبدل أحيانا كلمة « الغيرية » altruiste بكلمة الاجتماعية . ويقصد بهذا الوصف أن موضوع النزعة وغايتها لا يتصلان بذات الكائن المتلبسة به ، وإنما يتصلان بكائن آخر أو بكائنات أخرى غيره . وتقابل النزعات الغيرية بهذا المعنى ما يسمونه بالنزعات الذاتية أو الأنانية égoïstes ؛ وهى التى تتصل فى موضوعها وغايتها بذات الكائن المتلبسة به . — ووصف النزعات التى هى موضوع حديثنا بكلمة « الغيرية » بهذا المدلول أدق وأشمل من وصفها بكلمة الاجتماعية ، وأكثر منه انطباقا على المعنى الذى نقصده . ولكننا مع ذلك

---

(١) لأن النزعة قد تكون مكتسبة فى نشأتها الأولى ، ثم ترسخ فى النوع فتصبح فطرية ، أى تنتقل بطريق الوراثة من الأصول إلى الفروع . — انظر فى ذلك كتابنا فى «الوراثة والبيئة » ص ٤٢ — ٤٨ .

آثرنا هذه الكلمة الأخيرة فى عنوان هذه الخاتمة لكثرة تداولها على الألسنة ، ولغرابة الكلمة الأولى .

وقد تستبدل أحيانا كلمة « الغريزية » بكلمة الفطرية . ولكننا آثرنا استخدام هذه الكلمة الأخيرة ، لأن كلمة الغريزة لا تزال غامضة مبهمة ، ولأن الخلاف لا يزال كبيرا بين الباحثين فى تحديد مدلولها وتمييز ما تطلق عليه من بين أنواع النزعات الفطرية ، ولأننا قد نعرض لبعض نزعات فطرية لا تسمى غرائز فى نظر بعض العلماء .

ومع أن الإنسان لا يدانيه أى حيوان آخر فى نزعاته الاجتماعية وفى دقتها وتشعبها ، فإن ما هو فطرى عند الإنسان من هذه النزعات ، بالمعنى الذى ذكرناه لكلمة « فطرى » ، ليس شيئا مذكورا إذا قيس بنظائره عند الحيوان . ويرجع السبب فى ذلك إلى كثرة ما ينتاب الإنسان من تطور وإلى اختلاف شئونه باختلاف المجتمعات ، وإلى تدخل العقل والإدارة فى معظم أعماله وضآلة ما يعتمد منها على الفطرة والوراثة .

وسنقتصر فى هذه الخاتمة على عرض أربعة عشر مثالا من أغرب هذه النزعات عند الحيوان .

— ٢ —

نزعة التجمع أو التكتل أو الحياة فى جماعة أو قطيع

زود بهذه النزعة فى صورة فطرية عدة فصائل من الحيوانات والحشرات والطيور منها القردة والفيلة والذئاب والأبقـــار والأغنام والظباء والقنفذ والنحل والنمل والنعام والبجع والدجاج والحمام والسمان وعدة أنواع من العصافير والجراد .

وفى بعض هذه الطوائف يشتد التكتل فى فصول خاصة من السنة أو فى مناسبات معينة ، وخاصة فى مناسبات الهجرة من مكان إلى مكان .

فقطعان الجاموس الوحشى Le bison فى أمريكا كان يشتد تكتلها قبيل الشتاء حينما كانت تندفع لطلب الكلأ مهاجرة صوب الجنوب ، حتى لقد كان بعض قطعانها فى هذه المناسبات يصل عدد أفراده إلى عدة ملايين ، وحتى إن قطيعا واحداً منها قد شغل فى أثناء هجرته مساحة عرضها ستون ألف متر وبلغ طوله أن أنعامه ظلت تتدافع بعضها إثر بعض فى سير سريع مطرد مدة خمسة أيام متواليات[١] . وقد ظل هذا الحيوان على هذه الوفرة وعلى هذا النمط من التكتل حتى أواخر القرن التاسع عشر . فقد روى أحد من جاسوا خلال هذه القارة من ثقات الرحالة أنه قد مر فى سنة ١٨٧١ بقطيع من هذا الجاموس يبلغ طوله زهاء خمسة وخمسين ألف متر[٢] .

ويلاحظ هذا التكتل الشديد كذلك فى فصائل الطيور المهاجرة فى مواسم هجرتها من منطقة إلى منطقة كفصائل السمان وأبى فصادة التى تهاجر إلى مصر فى أواخر الخريف وأوائل الشتاء ، ويبلغ أقصى شدته فى فصائل الجراد فى مواسم هجرتها حتى ليتألف منها سحب متحركة تحجب السماء وضوء الشمس فى مساحة واسعة من الأرض .

وقد نجم عن هذه النزعة واتصل بها نزعات أخرى كثيرة أصبح بعضها فطريا ينتقل بطريق الوراثة من السلف إلى الخلف ، بينما لا يزال بعضها الآخر إراديا يخضع للتواضع والاصطلاح .

فمن ذلك نزعة توزيع العمل فى المجتمع الحيوانى وتقسيمه إلى طوائف تقوم كل طائفة منها بعمل خاص تتوقف عليه حياة الجماعة أو بقاء

---

(١) انظر ص ٦١ وتوابعها .

(٢) انظر كتابنا عن « الهنود الحمر » صفحات ٩٩ — ١٥٠ . وفى هذه الصفحات كذلك بيان للأسباب التى أدت إلى انقراض هذا الحيوان من هذه القارة .

نوعها أو استقرار نظامها كما هو الشأن فى طوائف النحل والنمل وما إليهما .

ومن ذلك أيضا النزعة إلى نظام حكومى أو إلى الخضوع لرئيس أو رؤساء كما هو الشأن فى طوائف النحل والنمل والقردة والأبقار والأغنام والجاموس الوحشى والأوعال والقنغر والدجاج .

ومن ذلك أيضا الاصطلاح على أدلة إرادية للتفاهم بها بين أفراد المجتمع . ولشدة غرابة هذه النزعة عند الحيوان سنفرد لها أربع فقرات على حدة .

— ٣ —

التفاهم بالإشارة عند الحيوان

تبدو هذه النزعة على الأخص لدى فصائل النحل والنمل والقردة والأبقار والأغنام والوعول . فقد ثبت أن كثيرا من الفصائل تستخدم ، فى صورة مقصودة متواضع عليها ، بعض إشارات جسمية للتعبير بها عن بعض شئونها . ففحل الأوعال (الأيل) يستخدم فى أثناء قيادة قطيعه بعض إشارات برأسه وقرونه للوقوف فيقف جميع أفراد القطيع ، وبعض إشارات للسير فيسير جميع أفراد القطيع ، ويستحث المتخلفات بأن ينطح كلا منهما نطحا خفيفا . وتستخدم كذلك فصائل القردة ، وبخاصة الفصائل العليا منها (الغوريلا ، الشمبنزيه ، الجيبون ، الأورانج — أوتانج) ، وفصائل النحل والنمل بعض إشارات من هذا القبيل . فقد كشف العلامة كوهلر Köhler عند فصائل القردة العليا عن ظواهر كثيرة من هذا النوع ، منها ما يستعمله الشمبنزية حينما يريد أن يرافقه آخر فى طريقه ، أو يرغب فى أن يعطيه أحد زملائه شيئا مما فى يده ، أو يناديه عن بعد : فإنه فى الحالة الأولى يحتك به بخفة ويجذبه من ذراعه محدقا فيه ومتقدما بعض خطوات فى الطريق التى يود أن يسلكاها معا ؛ وفى الحالة الثانية يمد يده إلى زميله مد الاستجداء ؛ وفى الحالة الثالثة يمد يده ويقبض كفه ويبسطها كما

نفعل نحن فى مثل هذه المناسبة(١) . وقرر الأساتذة كيربى وسبنسر وبورميستر وهوبير وفرانكلين Kirby, Spencer, Burmeister, Huber, Franclin أن كثيرا من طوائف النحل والنمل يستخدم أفرادها بعضها مع بعض إشارات مقصودة للتعبير بها عن بعض شئونها ، وأن هذه الإشارات تتمثل فى احتكاك بعض أعضاء المتكلم أو أطرافه أو ذؤاباته بجزء من جسم المخاطب بطريقة خاصة . وقام العلامة لوبوك Lubbock بطائفة كبيرة من التجارب فى هذا الصدد فتبين له صدق ما ذهب إليه هؤلاء الباحثون(٢) .

وقد نشر الأستاذ « ألن ديفو » فى مجلة « نيتشر مجازين » مقالا تحت عنوان « لغة الحيوان فى الغاب » يتضمن حالات كثيرة من هذا النوع . وفيما يلى بعض مقتطفات من هذا المقال الطريف(٣) :

---

(١) انظر Köhler : L'Intelligence des Singes Supérieurs. p 264 et suiv.

(٢) V. Ribot : L'Evolution des Idée Générales p. 66, 67; Lubbock : Ants, Bees, and wasps; Romanes : Animal Intelligence
وانظر تفصيل التعبير عند الحيوان فى كتابنا « نشأة اللغة عند الإنسان والطفل » . — هذا ، وقد أنكر بعض العلماء وجود الاشارات ذات الدلالة المقصودة عند الحيوان . ومن هؤلاء العلامة وازمان Wasman الذى يرى أن كل الاشارات الحيوانية التى يخيل للانسان أنها من هذا النوع هى فى الحقيقة فطرية ، وأنها لا تدل المخاطب على شىء معين بل تقتصر على إثارة نشاطه فى ناحية يحددها العمل الذى سيتلو الإشارة ، وتابعه فى هذا العلامة دولاكروا :

Wasman : Die Psychischen Fahigkeiten der Ameisen, p. 86; Delacroix : Le Langage et la Pensée p. 77.

(٣) نقلا عن مجلة « المختار » الصادرة فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٧ ، وقد لخصت هذه المجلة المقال المشار إليه .

« إذا وجدت النحلة العاملة زهرة حافلة بالرحيق ، عادت طائرة إلى الخلية ، ثم تشرع ترقص محومة فى الفضاء رقصا غريبا خاصا يدل دلالة واضحة على معنى رسالتها المستعجلة . فيفهم سائر النحل فحوى هذا العمل ، فإذا به ينضم إليها واحدة فى إثر واحدة ، ثم لا يلبث الجمع أن يندفع كله قاصدا ينبوع هذا الرحيق . — وإذا أراد الحجل أن ينذر قومه بالخطر طار مسرعا مسافة قصيرة متنقلا من شجرة إلى شجرة ، وهو يصفق بجناحيه تصفيقا شديدا . — وأنثى الدببة إذا أرادت ان يسرع إليها ولدها نازلا من أعلى شجرة تسلقها ضربت بكفها جذع الشجرة . — وأنثى الظباء إذا أرادت أن تقول لخشفها « اتبعنى » ، شالت بذيلها الكث مرة واحدة حتى يرى بياضه الباطن . — ومن أعجب أساليب التفاهم بين الحيوان هو أسلوب الحديث بين الطائر الذى يسمى « الهادى إلى العسل » والحيوان المعروف باسم « أبو كعب » أو آكل العسل . فهذا الطائر يحب أكل يرقات النحل حين تكون كالدود ، وآكل العسل منهوم بحب العسل . والطائر الهادى إلى العسل لاقبل له بالتغلب على جماعات النحل الساخطة ؛ أما آكل العسل فهو قصير الرجلين ، فلا يستطيع أن يقطع المسافات الطويلة بحثا عن خلايا النحل . فترى الهادى إلى العسل يطير مطوفا فى أنحاء الغابة باحثاً عن شجرة فيها خلية نحل ؛ ثم يرتد مسرعا إلى القابع الصابر فيحوم فوق رأسه ، وهو يقول له بصوت رفيع عال : « شر ، شر » . ويدلف آكل العسل متثاقل الخطو على أثر الطائر المرفرف بجناحيه . ولما كان هذا الحيوان فى وقاء من جلده الكثيف الشعر فلا يضره لسع النحل ؛ فهو يهجم على الخلية ويمزقها إربا إربا . ثم يجتمع هو والطائر على المائدة الشهية . — ونحل الشجر فى المناطق الاستوائية يتكلم فينتقل كلامه من شجرة إلى شجرة ؛ وذلك بأن يدق دقا شديدا على لحاء الشجر وورقه ، حتى يسمع لدقه صوت كأنه إنهمار رذاذ من مطر . — أما اسراب الفيلة فلا تكف لحظة عن غمغمة تسمع من حديث أو إشارة ؛ وهى لغة أداتها الإشارة بالآذان والخراطيم » .

— ٤ —

التفاهم بالرائحة عند الحيوان

هذا وقد كشف بعض الباحثين أنواعا أخرى غريبة من التفاهم بين الحيوان .

فمن ذلك ما يمكن تسميته التفاهم بالرائحة . « فقد ذكر علماء الحيوان أن الذئب إذا زاد طعامه عن حاجته دفن جزءا منه فى التراب وخلف هناك شيئا من رائحته عالقا بالمكان ، فيفهم سائر الذئاب فحوى رسالته حق الفهم . والذئب يفصح عن نفسه مرة أخرى بأن يخلف رائحته حيث يريد فتفهمها الذئاب أجود الفهم ، كما يفهم الرحالة من الناس إذا قرأ مذكرات كتبها رجل سبقه إلى هذه الرحلة . والذئاب والثعالب ، وهى فى الحقيقة من فصيلة الكلاب ، تعيش فى عالم لا تعد أرضه أرضا فحسب ، بل هى أرض مفعمة بالرائحة المعـــبرة . ويقول الأستاذ ف . بايتندجك الهولندى الذى تولى التجارب الشهيرة فى دراسة نفسية الكلاب : إن الكلب مشغول أبدا بحديث لا ينقطع بينه وبين سائر الكلاب التى فى ناحيته عن طريق الشم[١] » .

— ٥ —

التفاهم بين الحيوان بدون صوت ولا رائحة ولا إشارة

وأغرب أنواع التفاهم بين الحيوان هو ما يكون بغير صوت ولا رائحة ولا إشارة ولا أية حركة أخرى . وفى هذا النوع يقول الأستاذ ألن ديفو : « وقد ذهب

---

(٢) انظر مجلة المختار عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ٤٦ .

بعض علماء الحيوان إلى أنه ضرب من الاستشفاف « تليباثى » . وذهب آخرون إلى أنه ليس إلا ضربا من الحواس اللطيفة التى بلغ لطفها مبلغا تعجز عن إدراكه حواس الإنسان . وينكر آخرون ذلك كله إنكارا باتا . وأستطيع أنا أن أروى غير متحيز إلى فئة خبر هرتين عندى هما « سيم » و « سام » بينهما علاقة لا تنفصم من الأخوة والود ، وهما لا يختلفان أو يفترقان إلا فى شىء واحد : فإن « سيم » يحب الخروج إلى الصيد . أما « سام » فيحب الكسل ، فيقضى الساعات قابعا فى البيت . ولكن بعد الشقة بينهما حين يفترقان لا يمنع فيما يظهر أن يظل بينهما ضرب من التفاهم والاتصال . فقد يخرج « سيم » أحيانا يتصيد ، فيغيب نصف يوم ، وإذا بى أرى « سام » يهب من مضجعه على مكتبى يقظان فزعا ، ويرفع أذنيه متلهفا ويميل برأسه كالمنصت المصغى ؛ وما هو إلا أن يعدو نحو الباب ، فإذا فتحت له الباب انطلق كأنه سهم مقذوف إلى الحقول تارة وإلى الغابة تارة أخرى . ولو بدا لى أن أخرج فى إثره لما خامرنى ريب فيما سوف أجد . فهذا الصياد « سيم » قد ولى وجهه شطر البيت ومعه صيد صاده لساعته ، فعرف « سام » خبر صاحبه ، وإن كنت لا أدرى كيف عرف . قد تقول إنه عجب لا يصدق ! نعم ربما كان كما تقول ! ولكن ما أكثر ما نجهل عما يدور فى طوايا حواس الحيوان ونفوسها ، حتى لنرى أن أكثر العلماء علماً وتجربة لا يصر إصرار العنيد على إنكار اللغة الصامتة التى يتفاهم بها حيوان الغاب ، أيا كانت طبيعة تلك اللغة » (١) .

ومن هذا النوع كذلك ما دونه الأستاذ آلن ديفو عن الثعالب إذ يقول : « وقفت مستترا ببعض الشجر أرقب ثلاثة من صغار الثعالب تلعب ، وأمهن على باب الوجار تتبعهن البصر راضية مطمئنة ، فإذا بصغير من الثلاثة يعدو موغلا فى المرج ، وكان أصغر من أن يباح له أن يخرج وحيدا يطوف فى أرجاء هذا

(١) انظر مجلة المختار عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ٤٨ .

العالم . فاستوت الأم قائمة ، وسددت أنفها إلى الناحية التى ذهب فيها ، وبقيت على هذه الهيئة ساكنة صامتة لا تتزحزح ، ولم يند عنها صوت يسمع ، ولكن لم ألبث قليلا حتى رأيت الصغير عائدا أدراجه ، فتلفت يمنة ويسرة ، ثم سدد بصره إلى أمه ، فلم تحول بصرها عنه ، وإذا بالصغير يسرع إلى وجاره كأنما كانت تجذبه بخيط لا تراه العين»(١) .

— ٦ —

الأصوات عند الحيوان

يرجع أهم ما يلفظه الحيوان من الأصوات إلى ثلاث طوائف :

(الطائفة الأولى) أصوات فطرية الأصل يستخدمها الحيوان قاصدا بها التعبير عن بعض شئونه : كالحمحمة التى يرددها الفرس بشكل إرادى عند رؤية صاحبه للتعبير عن حاجته إلى العلف ، والمواء الذى يلجأ إليه الهر ليبنىء به عن جوعه ، والنباح الذى يلفظه الكلب قاصدا به إيقاظ أهل المنزل وإرشادهم إلى أن شخصا يحوم حول البيت ... وهلم جرا .

وهذه الطائفة ليست فى الواقع من اللغة الصوتية فى شىء ، وأن اشبهتها فى ظاهرها ووظيفتها . وذلك أنها أصوات مبهمة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر . ومن أهم خصائص الكلام كما لا يخفى اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها من بعض . هذا إلى أنها فى الأصل أصوات فطرية تصحب الانفعالات ، وأن كل ما يعمله الحيوان حيالها فى هذه الحالة أن يرددها هى نفسها بشكل إرادى للدلالة على الانفعالات نفسها التى تعبر عنها فى شكلها الفطرى أو للدلالة على أمور انفعالية قريبة منها (الجوع ، العطش ، الخوف ... الخ) . —

---

(١) انظر مجلة المختار عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ٤٥ .

وأصوات هذا شأنها لا يصح عدها كلاما ؛ لأن أهم خصائص الكلام أنه أصوات موضوعة للدلالة وأنه يعبر به عن معان لا عن انفعالات(١) .

(الطائفة الثانية) أصوات متنوعة تلفظها القردة فى اجتماعاتها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها وسائل تعبير إرادى ، وأن أفراد القردة تتجاذب بها الحديث بعضها مع بعض . — وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح فى الفصائل العليا من القردة وبخاصة « الجيبون »(٢) .

وهذه الطائفة كذلك ليست فى الواقع من اللغة الصوتية فى شىء وإن أشبهتها فى ظاهرها ومناسبات استخدامها . فقد ظهر بالبحث فيها أن بعضها تعبير طبيعى عن الانفعال ، وبعضها مجرد ترديد إرادى لهذا التعبير (٣) وبعضها من ظواهر التداعى الآلى(٤) أو العدوى الصوتية(٥) أو تقليد الحيوان بطريق فطرى

---

(١) يبدو كذلك هذا النوع من الأصوات عند الطفل الإنسانى فى شهوره الأولى . وقد يلجأ الكبار أنفسهم أحيانا لهذا النوع من التعبير فيضحكون مثلا متكلفين الضحك للتعبير عن السرور .

(٢) ولهذه الأمور وما شاكلها ذهب بعض العلماء إلى أن للقردة لغة تتألف من اثنتين وثلاثين كلمة . ويذهب الدكتور اوتر جرينهول المدير العام لحدائق الحيوان فى ديترويت الى أن الحيوانات الوحيدة التى تصدر عنها أصوات تشبه اللغة هى الشمبانزى (انظر جريدة الاهرام فى عددها الصادر يوم ٨/١٢/١٩٤٨) .

(٣) أى من الأصوات التى سبق ذكرها فى الطائفة الأولى .

(٤) وذلك أن يرتبط الصوت بشىء آخر بطريقة تجعله يظهر بشكل غير إرادى كلما ظهر هذا الشىء . وسيأتى بيان ذلك بتفصيل فى الطائفة الثالثة .

(٥) تبدو ظاهرة العدوى الصوتية عند كثير من أنواع الحيوانات ، وتبدو كذلك عند الأطفال إذا ضمهم مكان واحد : يصوت الوليد منهم فيثير صوته أصوات الآخرين ، ويبكى أحدهم فيبكى لبكائه الباقون (انظر تفصيل هذا بكتابى « فى التربية » الطبعة الثانية ص ٧٠ وتوابعها) .

غير إدارى لأصوات نفسه أو أصوات غيره (١). — هذا إلى أنها ، على الرغم من تشابه أعضاء النطق عند فصائل القردة وأعضاء النطق الإنسانية ، أصوات مبهمة بسيطة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر . ومن أهم خصائص الكلام اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها عن بعض[٢] .

(الطائفة الثالثة) أصوات مركبة ذات مقاطع تلفظها بعض الطيور كالببغاء وما إليها من الفصائل التى امتازت أعضاء صوتها بخصائص طبيعية يتيح لها إخراج هذا النوع .

وهذه الطائفة كذلك ليست فى الواقع من اللغة الصوتية فى شيء وإن أشبهتها فى الظاهر . وذلك أن الطائر لا يقصد بهذه الأصوات التعبير . فهى تصدر عنه فى ثلاث حالات كلها فطرية آلية عارية بتاتا عن هذا القصد :

(الحالة الأولى) حينما يكون الطائر متلبسا بانفعال جسمى أو نفسى . وهى فى هذه الحالة من نوع التعبير الطبيعى عن الانفعالات : تصدر عن غير قصد ؛ ويثيرها بشكل آلى الانفعال المتلبس به الطائر . وإثارتها مؤسسة على الروابط الطبيعية الفطرية التى تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك وحدها بشكل آلى أو منعكس وتلفظ أصواتا مركبة ذات مقاطع

---

(١) سيأتى شرح هذا فى الطائفة الثالثة .

(٢) انظر فى هذا الموضوع بحوث الأستاذ Pfungst الذى درس أكثر من مائتى قرد فى حديقة الحيوان ببرلين ، وبحوث Bouton الذى لاحظ فى أثناء خمس سنوات نحو قرد من فصيلة الجيبون ، وبحوث كوهلر الذى كتب كثيرا فى القردة وبخاصة القردة العليا التى ألف فيها كتابه الشهير « ذكاء القردة العليا » ، وانظر كذلك ما كتبه أستاذى العلامة دولا كروا بهذا الصدد فى كتابه «اللغة والتفكير» ص ٧٧ وتوابعها .

عند وجود حالة من الحالات الجسمية أو النفسية المرتبطة بها . فهى حينئذ من قبيل الضحك والبكاء وما إليها من مظاهر « التعبير الطبيعى السمعى » . وكل ما هنالك أن التعبير الطبيعى السمعى يبدو عند الحيوانات الأخرى فى صورة أصوات بسيطة مبهمة ، ويبدو عند هذه الطيور أحيانا فى صورة أصوات مركبة ذات مقاطع .

(والحالة الثانية) حينما تكون محاكاة لصوت إنسانى سمعه الطائر . وهى فى هذه الحالة كذلك تصدر بشكل آلى عار عن قصد التعبير بل عن قصد المحاكاة نفسها .

وذلك أن هذه الفصائل مزودة بروابط طبيعية تربط جهاز سمعها بجهاز صوتها بطريقة تجعل أعضاء الجهاز التالى تتحرك أحيانا وحدها وتلفظ بشكل آلى الأصوات نفسها التى يحسها الجهاز الأول : فكلما وصل صوت إلى سمعها فى ظروف خاصة انبعث صداه من أفواهها (١) .

(والحالة الثالثة) قد تسمع الببغاء أحيانا كلمات أو أصواتا فى مناسبة ما فتكررها كلما حدثت هذه المناسبة أو مناسبة أخرى تشبهها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها تقصد بها التعبير عن أمر معين : فقد تسمع مثلا أصحابها ينادون طفلا باسمه ، فتكرر هذا الاسم كلما رأت الطفل أو رأت دميته أو متاعا من أمتعته (٢) .

وهذه الأصوات كذلك ليست من اللغة فى شىء وإن التبست بها فى بادىء النظر . وذلك أن الطائر لا يقصد بها ، فى الواقع ، التعبير عن أمر ما ، وإنما تصدر منه بشكل غير إرادى على الصورة التى تصدر فيها ظواهر « التداعى الآلى » .

---

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع بمؤلفى : «فى التربية» الطبعة الثانية صفحتى ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) من أهم الملاحظات بهذا الصدد ما دونه الدكتور ولكس عضو الجمعية الملكية بصحيفة العلوم العقلية عدد يولية سنة ١٨٧٩ :

Dr. Wilks, Journal of Mental Science,

فمن كثرة تكرار الكلمة أمام الطائر بحضرة الشخص أو الشيء الذى تدل عليه ترتبط صوتها بصورة مدلولها ، فينبعث الصوت من الطائر بشكل آلى كلما ظهر أمامه المدلول أو ما يتصل به (١) .

— ٧ —

نزعة الاسترقاق أو الاستعباد أو تسخير الغير

زوّد بهذه النزعة كثير من فصائل الحيوان والحشرات ؛ وتبدو أوضح ما يكون فى بعض فصائل النمل ؛ وخاصة فى فصيلة منها تسمى «الفورميكاروفسينس» Formica Rufescence التى تستعبد فصيلة أخرى من النمل تسمى «الفورميكافوسكا» Formica Fusca .

فكل قرية من قرى «الفورميكا روفيسنس» تنتظم طائفتين من النمل :

إحداهما طائفة الأسياد وتتألف من فصيلة «الفورميكاروفيسنس» نفسها ؛ وثانيتها طائفة الأتباع أو الرقيق أو العبيد وتنحدر من فصيلة «الفورميكافوسكا» . وتختلف أفراد كلتا الفصيلتين عن أفراد الفصيلة الأخرى اختلافاً غير يسير فى لونها وحجمها وحركتها واستعدادها ومبلغ نشاطها وما تقوم به من أعمال وتؤديه من وظائف .

أما طائفة الأسياد (الفورميكاروفيسنس) فتنقسم ثلاثة أقسام : الإناث

---

(١) انظر فى هذا الموضوع كتابى الأستاذ رومان : «الذكاء الحيوانى» و «الارتقاء العقلى للانسان» . — وانظر بحثاً بهذا الصدد للعلامة ولكس فى المجلة الفلسفية لسنة ١٨٨٠ Revue Philosophique . — وانظر كذلك ما كتبه أستاذى دولا كروا فى كتابه «اللغة والفكر» ص ٧٨ .

المنتجات ؛ والذكور ؛ والإناث العقيمات المقاتلات . ولكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة عمل لا يتعداه . فعمل الإناث المنتجات مقصور على تلقى اللقاح ووضع البيض ؛ وعمل الذكور مقصور على تلقيح الإناث المنتجات ؛ وعمل الإناث العقيمات مقصور على الغزو والسلب . وذلك بأن تغير ، كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، على قرية من قرى « الفورميكافوسكا » (طائفة الرقيق) وتسلبها ما تعثر عليه فى جنباتها من بيض وتحمله إلى أجحارها .

وأما طائفة الرقيق (الفورميكافوسكا) فهى نتاج هذا البيض بعد أن ينفلق فى قرى الأسياد (الفورميكا روفيسنس) . ويصاب أفراد هذه الطائفة بالعقم إذا نشأت فى قرى أسيادها ؛ مع أنها فى قراها الأصلية تتوافر لها أسباب التناسل ، فتنتظم ذكوراً مخصبة وإناث منتجات . ويقوم أفراد هذه الطائفة وحدها فى قرى أسيادها بمختلف الأعمال الضرورية للقرى نفسها ولما تشتمل عليه من حشرات وبيض وديدان . فتقوم وحدها بحفر الأجحار وبناء الخلايا التى يوضع فيها البيض ، وحراسة القرية والذود عنها ، وتعهد ما تبيضه الإناث المنتجات ، وتربية ما ينقف من صغار ، وجلب الغذاء وادخاره ، وإطعام أسيادها الكبار بوضع القوت فى أفواهها . وإذا دعت الحاجة إلى تغيير القرية لعدم صلاحيتها للسكنى على أثر حادث طبيعي أو مقصود ، فإن طائفة الرقيق هى التى تقوم وحدها بتصميم القرية الجديدة وتنظيم منازلها وحفر أجحارها ونقل أسيادها إليها ؛ فيحمل كل رقيق فى خرطومه سيداً من أسياده ويعدو به إلى القرية الجديدة ويضعه فى موضع يشبه الموضع الذى كان به فى القرية القديمة ، ويعود مرة ثانية ليحمل سيدا آخر .. وهكذا دواليك .

وقد لاحظ العلامة بيير هوبير P. Huber ، الذى يرجع له الفضل فى الكشف عن هذه النزعة عند هذه الفصائل ، أنه لو تجردت قرية من قرى الفورميكا روفيسنس من رقيقها لعفت القرية وفنى جميع ما فيها فى زمن وجيز . وثبت

لديه ذلك من تجربة أجراها على قرية من هـذه القرى ، بأن انتزع منها جميع ما كان بها من رقيق . فعلى الرغم من أن هذه القرية كانت تشتمل على كمية كبيرة من القوت المدخر ، ومن أن وجود هـذا القوت كان من شأنه أن يثير غريزة طلب الغذاء وخاصة فى حالة اشتداد الجوع ، فإن طائفة الأسياد التى كانت بالقرية لم تستطع إطعام نفسها بنفسها ، فمات أكثرها جوعا والقوت بين يديها . وعلى الرغم من أن القرية كانت تشتمل على كمية كبيرة من بيض النمل وديدانه الصغيرة ، ومن أن وجود هذا البيض وهذه الديدان من شأنه أن يثير عاطفة الأبوة لدى الكبار ، فإن هذه لم تقم نحو بيضها وديدانها بعمل ما حتى نفق معظمها وأشرف ما عدا ذلك على الهلاك .

وحينئذ بادر الأستاذ بيير هوبير بإدخال رقيق واحد من الطائفة التى كان قد انتزعها من القرية . فطفق هذا الرقيق من فوره يعمل على تنظيم القرية وإسعاف ما بقى فيها من أسياده على قيد الحيـاة ، فحمل القوت للكبار ، وأخذ يضعه فى أفواهها ، وتعهد البيض والديدان ، وحمل إليها ما كان يعوزها ، وشرع فى بناء الخلايا وإصلاح ما تهدم منها . وما هى إلا لحظات حتى دبت الحياة فى القرية ، وعاد كل شىء فيها سيرته الأولى بفضل هذا الرقيق(١) .

---

(١) انظر فى هذه النزعة وما يتصل بها :

P. Huber : Mœurs des Fourmis 194—230.

Bühner : la Vie psychique des Bêtes 199—255.

Letourneau : L'Evolution de l'Esclavage 8—21.

Darwin, L'Origine des Espèces (trd. fr.) Paris 1921. p. p. 290—295.

— ٨ —

نزعة الخضوع للغير

وهى النزعة المقابلة للنزعة السابقة . وتتمثل فى استعداد فطرى يهيء الحيوان للخضوع لغيره وخدمته وقضاء حاجياته . وقد تولد هذا الاستعداد ورسخت جذوره شيئا فشيئا مع تقادم الزمن حتى أصبح فطريا عند معظم الحيوانات التى استأنسها الإنسان وسخرها فى قضاء حاجاته ، وعلى الأخص عند فصيلة الكلب . وتتوافر كذلك هذه النزعة عند بعض الحيوانات غير المستأنسة وعند بعض فصائل الحشرات . وقد ظهر مما قلناه فى النزعة السابقة (نزعة الاسترقاق) أن نزعة الخضوع للغير التى نتكلم عليها قد بلغت أقصى ما يمكن أن تصل إليه نزعة فطرية فى دقتها وحسن أدائها لوظيفتها عند فصيلة النمل المسماة « الفورميكافوسكا » التى تستعبدها فصيلة « الفورميكا روفيسنس » .

— ٩ —

نزعة إيواء الغير وإضافته

تتفق هذه النزعة مع النزعة الثانية (نزعة الاسترقاق) فى أن كلتيهما تقتضى أن تنتقل فصيلة حيوانية إلى حيث تقيم فصيلة أخرى أجنبية عنها فتستقر لديها وتقاسمها فى صورة ما شئون حياتها . وتختلفان فى أن أولاهما تجعل من أفراد الفصيلة الدخيلة عبيدا تسخر فى قضاء حاجات الفصيلة الأصيلة ؛ على حين أن الأخرى تجعل من أفراد الفصيلة الدخيلة ضيوفا ونزلاء تكرم الفصيلة الأصيلة وفادتها وتقدم لها ما تحتاج إليه ، وتؤثرها أحيانا على نفسها .

وقد زود بهذه النزعة عدة طوائف من الحشرات ، وخاصة بعض طوائف من النمل والنحل والبعوض .

فقد لاحظ العلامة وازمان Wasmann أن بعض طوائف النمل تأوى لديها بعض حشرات طفيلية لا تمت بصلة إلى فصائل النمل على الإطلاق ، فيقدم إليها النمل جميع ما تحتاج إليه فى غذائها ومقومات حياتها ، وأن بعض هذه الحشرات لا يقنع بما يقدمه لها كبار النمل من غذاء ، بل يسطو على صغاره ويفترسها ، فلا تكاد تحل فى قرية حتى ينقرض أهلها ويشيع فيها الخراب والدمار .

ولاحظ العلامة پيير هوبير P. Huber أن بعض طوائف البعوض Puceron تجذب إليها أصنافا من النمل الطفيلى وتفرز له من جسمها سائلا يتغذى به . فيحيط بكل بعوضة منها نملة أو نملات تخز البعوضة بإبر خراطيمها فتفرز لها سائلا سكريا تعتمد عليه فى غذائها ، وأن هذا البعوض لا يفرز سائله هذا إلا لهذه الفصائل بالذات . وثبت لديه ذلك من تجربة أجراها على هذا البعوض . فقد عمد إلى نحو اثنتى عشرة بعوضة منه وأبعد عنها ما كان يحيط بها من النمل ، وعمل على ألا تدنو منها نملة ما طوال مدة التجربة التى استغرقت عدة ساعات . فانقطع إفراز البعوض انقطاعا تاما بعد إبعاد النمل عنه . وعبثا حاول هوبير أن يثير إفرازها بوسيلة صناعية إذ استخدم شعرة دقيقة وأخذ يداعب بها بطونها على نحو ما يفعله معها النمل مستعينا بمجهر مكبر ؛ فإن البعوض لم يستجب لوسيلته هذه وظل منقطعا عن الإفراز عدة ساعات . وحينئذ أطلق عليه نملة واحدة من النمل الذى كان قد انتزعه من حوله ؛ فطفقت هذه النملة تخز البعوض بإبرتها ؛ وما هى إلا لحظة يسيرة حتى أخذ البعوض يفرز سائله السكرى ؛ وأخذت النملة الجائعة تمتص هذا السائل بنهم شديد(١) .

ولاحظ الأستاذ ريموند دتمارز أن يرقات الخنفساء المعروفة بالمحرقة لا تلبث

---

(١) V. Darwin : L'Origine des Espèces (trad. f.) P. 279.

أن تنقف عن بيضها الموضوع بين أوراق الأغصان حتى تعمد إلى جذع شجرة وتسلقه إلى أن تبلغ زهرتها ، وتظل ترقب مقدم النحل إلى هذه الزهرة ؛ حتى إذا جاء النحل ركبت ظهرها ، فتحملها النحل إلى خلاياها وتؤويها فى مساكنها ، فتظل هناك فى رعايتها وضيافتها تتغذى ببيضها حتى تنسلخ من إهاب اليرقة الأولى ، ثم تبقى لتتغذى بعسل النحل حتى تلق صدفتها ، ثم تخرج ساعية إلى رزقها ، وهى حينئذ خنفساء قد بلغت أشدها(١) .

— ١٠ —

نزعة التطفل والاعتماد على الغير

وهذه النزعة تقابل النزعة السابقة (نزعة إيواء الغير وإضافته) ، وتعتمد فى الغالب عند الطوائف المزودة بها على وجود النزعة السابقة عند طوائف أخرى .

وقد زود بنزعة التطفل هذه عدة طوائف من الحشرات ، وخاصة الطوائف الثلاث المتقدم ذكرها فى النزعة السابقة .

وزود بها كذلك بعض طوائف من الطيور التى تضع بيضها فى أعشاش غيرها وتتحرر بذلك من عبء حضانته وتربية صغاره(٢) .

ومن أشهر هذه الطيور ما يسميه الفرنجة الكوكو الأوربى Coucou (نوع من الكروان) . فهذا الطائر لا يبنى لنفسه عشا ، ولا يحاول أن يحضن بيضه ، وإنما تعمد أنثاه إلى عش طائر آخر فتبيض فيه بيضة وإلى عش آخر فتضع فيه بيضة أخرى ، وهكذا حتى تفرغ ما فى عنقودها فى بضعة أيام . وبذلك تتحرر من تكاليف حضانة بيضها وتربية صغارها وتلقى بعبء ذلك كله على كاهل الطيور التى باضت فى أعشاشها على غير علم منها (فهذه الطيور ليست

(١) مجلة المختار عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ ، ملخصا عن مجلة التاريخ الطبيعى الأمريكية .
(٢) انظر أمثلة لذلك فى Darwin, op. cit. 285—290

مزوده بنزعة إيواء الغير المتقدم ذكرها ، بل تقدم على ذلك على جهل منها بأن ماتؤويه غريب عنها ، وتؤدي له ما تؤديه من حضانة وتغذية ورعاية على أنه من أفراخها هي) . — ولهذه النزعة الغريبة عند هذا الطائر وظائف حيوية هامة : فمن ذلك أنها تمكن أنثى الكوكو من مغادرة الإقليم الذى باضت فيه كلما دعتها إلى ذلك حالة الجو ومقتضيات حياتها وغذائها وغريزة المهاجرة المزودة بها . ولو أنها كانت تحضن بيضها وتقوم بتربية صغارها بنفسها لعاقها ذلك أحيانا عن هجرتها ، وخاصة لأنها تضع بيضها فى أيام متفرقة ، وهذا يطيل من مدة الحضانة والتربية ويضطرها إلى أن تبقى حيث هى أمدا طويلا . ومن ذلك أيضا أن هذه النزعة تتيح لكل فرخ من أفراخها غذاء كافيا ، إذ يستأثر بجميع الأغذية التى يجلبها الطائر الذى أضافه فى عشه على جهل منه . وذلك أنه لا يلبث أن ينقف عن بيضته حتى تبدو لديه نزعة غريبة للتخلص من أفراخ الطائر الأصيل وإجلائها عن العش ، فيدفعها بظهره دفعا عنيفا حتى يقذف بها إلى الأرض حيث تموت جوعا ، ويستبد هو بالعش ، وتخلص لغذائه ورعايته هو وحده جميع جهود الطائر الكبير . ولو قامت الأم نفسها بتربية أفراخها هذه ما أتيح لها هذا القدر من الغذاء ، ولقضى بعضها على بعض لنزعة التدافع المزودة بها من جهة ولاختلافها من جهة أخرى بعضها عن بعض فى الحجم وفى القوة تبعا لاختلافها فى السن ، لأن بيضها لا يوضع فى يوم واحد ، بل فى عدة أيام كما تقدم ذلك[1] .

— ١١ —

النزعة الجنسية

وتتمثل فى ميل فطرى يدفع ذكور الحيوانات وإناثها فى فصول معينة ن

---

(١) انظر فى هذه الغريزة Darwin, op. cit. 285—288

السنة أو تحت تأثير حالات جسمية ونفسية خاصة إلى التضافر فى صورة ما على القيام بعمليات التلقيح والإخصاب وما يتصل بها من أمور تكفل تناسل النوع وتجدده وبقاءه .

وتختلف الوسائل الفطرية التى تلجأ إليها فصائل الحيوانات فى هذا السبيل اختلافاً كبيراً ، ولكنها ترجع جميعا إلى طريقتين : طريقة التلقيح داخل الجسم ؛ وطريقة التلقيح خارجه .

(ا) فعند جميع الحيوانات العليا والطيور وكثير من الحشرات تتم عملية التلقيح داخل الجسم . ويكون ذلك باستخدام أعضاء خاصة على النحو المتبع عند الإنسان . — وعند بعض فصائل الحشرات وغيرها تتم عملية التلقيح داخل الجسم كذلك ، ولكن باستخدام أعضاء غير خاصة بهذه الوظيفة . ففى فصيلة العناكب مثلا يستخدم الذكر أطرافه الأمامية فى إيصال السائل المنوى إلى داخل جسم الأنثى مع احتفاظه بهذه الأطراف . وفى فصيلة الأخطبوط يستخدم الذكر أحد أطرافه الأمامية كذلك ، ولكن هذا الطرف ينفصل عن جسمه ويبقى بجسم الأنثى . وقد تتم عملية التلقيح داخل الجسم كذلك ، ولكن بدون اتصال الذكر بالأنثى اتصالا مباشرا . ففى بعض الأصداف يلقى الذكر بالسائل المنوى فى الماء فتحمله التيارات المائية إلى داخل جسم الأنثى .

(ب) وعند كثير من الحيوانات المائية الدنيا يتم التلقيح خارج الجسم . ففى كثير من فصائل الأصداف يلقى الذكر سائله المنوى والأنثى بويضاتها فى الماء فإذا اتفق مرور تيار مائى يحمل سائل الذكر إلى بويضات الأنثى تم التلقيح . وفى الأسماك تتخذ كل من الذكور والإناث احتياطات فطرية لضمان التلقيح خارج الجسم . فتغوص الأنثى إلى قاع المجرى وتحفر فيه حفرة تضع فيها بيضها وتندفع الذكور وراءها بغريزتها متقاتلة متنافسة ، فإذا فرغت الأنثى من عملها تدافعت الذكور نحو الحفرة لتصب سائلها المنوى على ما تحتويه من بيض . وتبالغ الضفادع كذلك بفطرتها فيما تتخذه من حيطة فى هذا السبيل . ففى موسم

القاح تنتقل الأنثى من مخبئها الشتوى إلى البرك ، فإذا لقيها ذكر الف أطرافه الأمامية حولها وقبض عليها قبضا عنيفا ، وظل قابضا عليها حتى تلقى بيضها فى الماء فيصب عليه سائله المنوى ؛ وقد يظل قابضا عليها لهذه الغاية أياما بل أسابيع . ويلاحظ أن أطرافه الأمامية تنمو فى هذا الفصل فى صورة تزيدها قوة وتمكنها من أداء هذه الوظيفة على أكمل وجه .

— ١٢ —

نزعة تعهد البيض وحضانته

زود بهذه النزعة الفطرية كثير من فصائل الطيور والحيوانات والحشرات والزواحف . غير أن هذه الفصائل يختلف بعضها عن بعض اختلافا غير يسير فى المناهج التى تسلكها فى هذا التعهد وفى هذه الحضانة .

فنى بعض الفصائل تبدو هذه النزعة لدى الإناث وحدها ؛ فتقوم هى دون الذكور بجميع أعباء الحضانة ، كما هو متبع عند فصائل الدجاج المستأنس . ويسير على هذا المنهج من غير الطيور فصائل أخرى كثيرة من أغربها فى هذا الصدد العنكبوت وقنفذ النمل . أما العنكبوت فتحمل بيضها فى حقيبة من خيوطها تنسجها بنفسها ، فإذا دنا انفلاق البيض عن صغارها مزقت الأم هذه الحقيبة ، فينبعث منها الصغار . وأما قنفذ النمل الذى يعيش فى أستراليا فهو حيوان من ذوات الأربع له شوك كأشواك الشيهم ولسان كلسان آكل النمل ومنقار كمنقار البط . وتضع أنثاه بيضة أو بيضتين عليهما غشاء كالجلد الرقيق وتحملهما فى جرابها ؛ فإذا انفلقت البيضة عن الجنين الصغير المبهم الشكل الأمرط الذى لا شعر عليه أرضعته من لبنها(١) . — ومن أهم الزواحف التى تحضن أنثاها بيضها التنين

---

(١) ريموند دتمارز . الفلر مجلة المختار عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ صفحتى ٥٠ ، ٥١ . (ملخصا عن مجلة التاريخ الطبيعى الأمريكية) .

البرى أو البيثون Python ، وهو تنين غير سام يصل طوله أحيانا إلى نحو ثمانية أمتار . — وفى بعض فصائل السمك تحتضن الإناث بيضها فى أفواهها حتى ينفلق عنها الصغار(١) . — وفى كثير من الفصائل التى تسير على هذه الطريقة يقوم الذكر فى أثناء حضانة الأم للبيض بحراسة العش أو بتغذية الأنثى أو بأمور أخرى من هذا القبيل . ومن طريف الأمثلة لهذا النوع ما تسير عليه طيور الفصيلة المسماة « بوقير » . فأنثى هذا الطائر تلتمس لوضع بيضها نقرة فى جذع شجرة ، ويأتى الذكر بعد أن تستقر أنثاه فى هذه النقرة وتأخذ فى وضع بيضها فيها فيطوى جوانبها بالطين حتى لا يدع من فم النقرة إلا كوة ضيقة تتسع لإخراج عنق الحبيسة حتى يجلب إليها مئونتها وطعامها فى أثناء حضانتها لبيضها(٢) .

وفى بعض الفصائل تبدو هذه النزعة لدى الذكور وحدها كما هو متبع لدى فصيلة النعام ، إذا تجتمع طائفة من إناثه فى مكان وتبيض كل منها بيضة فيه ، ثم تنتقل إلى مكان آخر وتبيض فيه مجتمعة كذلك ، وهكذا تفرغ ما فى عناقيدها من بيض ، ثم تأتى الذكور فتتوزع على هذه المواضع وتقوم بحضانة ما فيها من بيض . وكذلك تفعل أنثى الحجل فى غانه الأمريكية ، إذ تلقى بيضها ثم تطير عنه وتدعه للذكر يتولى حضانته نحو ستة وخمسين يوما ، ثم تعود إلى ذكرها وهو قائم على تعهد صغاره التى لا يكون نموها قد اكتمل بعد فتلقى إليه بيضا آخر ، وتضطره بذلك إلى أن يوزع جهوده بين حضانة البيض الجديد ورعاية الصغار(٣) . وفى بعض فصائل الأسماك تضع الأنثى بيضها ثم تنقله إلى جراب فى بطن الذكر ، فيظل فى حضانة الذكر على هذه الصورة حتى يفقس(٤) .

وفى معظم أنواع الطيور تبدو هذه النزعة عند الذكور والإناث معا ، فيقوم

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٥٠ .

الذكر بحضانة البيض فى بعض ساعات من اليوم ، وتقوم الأنثى بحضانته فيما عدا ذلك . وذلك هو المتبع لدى كثير من طوائف الحمام والعصافير . والغالب أن تحضن الانثى بيضها فى جميع ساعات الليل ويقوم الذكر بحراسة العش فى أثناء حضانتها هذه ، ثم يتقاسمان الحضانة فيما بينهما فى ساعات النهار .

وفى بعض الأنواع تتعاون أفراد الفصيلة جميعا على حفظ البيض ورعايته وحضانته ؛ وفى بعضها يقع هذا العبء ، على كاهل فريق معين منها يتعاون أفراده فيما بينهم على القيام به ، كما هو الشأن فى ممالك النحل والنمل . ومن أغرب الطرق التى يتم فيها هذا التعاون بين أفراد الفصيلة ما يسير عليه فى هذا الصدد طائر البطريق الذى يعيش فى المنطقة المتجمدة الجنوبية . فلما كانت هذه المنطقة خالية من كل ما يصلح لبناء عش، فإن أنثى هذا الطائر ، التى تضع عادة بيضة واحدة ، تحمل بيضتها فى إحدى قائمتيها وتطوى عليها قبضتها ، فتمتنع بذلك البيضة من أن تتجمد . فإذا خرجت تلتمس قوتها واقتضاها ذلك أن تبسط قبضتها وتضع البيضة ، فإن آداب طيور البطريق تفرض على أحدها أن يأخذ هذه البيضة ويتعهدها ، إلى أن يضطر هو بدوره إلى الخروج فى طلب الرزق فيسلمها لآخر ، وهكذا نرى بيض طيور البطريق أمانة متداولة بينهم جميعا ذكوراً وإناثا(١) .

هذا وقد جرد من هذه النزعة فصائل من الحيوانات منها فصيلة الحيوانات التى تعيش فى البر والبحر معــا كالضفادع والعلاجم والسمندل ؛ فهذه الفصيلة تضع إناثها عددا كبيرا من البيض ، ولكنها تهمله إهمالا فلا يفقس منه إلا القليل(٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٥١ .

— ١٣ —

نزعة التفريخ الصناعي

تعمد بعض الطيور والزواحف والأسماك إلى طرق صناعية تعفيها من حضانة بيضها وتوفر لها الدفء والحرارة وتكفل تفريخه .

ومن أشهر الطيور المزودة بهذه النزعة ما يسميه الفرنجة بالتاليجال Talégalle وهو طائر يقطن استراليا وغينيا الجديدة ، ويشبه ما نسميه بالديك الرومى . وذلك أن أنثى هذا الطائر تقيم عشها فى مساحة واسعة وتجمع فيه كمية كبيرة من أوراق الشجر والعيدان والأعشاب اليابسة ، وتضع هذه الأضغاث بعضها فوق بعض ، فلا يحين موعد بيضها حتى يبلغ حجم عشها عدة أمتار مكعبة . وفى وسط هذه الكومة تضع بيضها تاركة للعوامل الطبيعية شأن تفريخه ، وللذكر وحده أمر العناية بما يتقف عنه من أفراخ . فيتولد من تعرض هذه المواد لأشعة الشمس درجة حرارة تحيط بالبيض وتكفل فقسه .

وكذلك يفعل التمساح الأمريكى إذ يتخذ من القش والأعواد وكرا كبيرا يضع فيه بيضه ويتركه حتى ينفلق عن صغاره بعد نحو شهرين من جراء الحرارة التى يولدها تحلل هذه الأعواد(١) .

— ١٤ —

نزعة تعهد الصغار وتربيتها والقيام على شئونها

تختلف أعباء هذه النزعة تبعا للحالة التى يكون عليها الصغار عقب ولادتها أو عقب خروجها من بيضها ، فتشتد أعباؤها وتكثر تكاليفها كلما كانت

---

(١) المرجع السابق ص ٥١ .

الصغار حينئذ ضعيفة أو عاجزة عن الحركة أو غير مكتملة الحواس أو الأعضاء أو الأجهزة ، أو غير قادرة على البحث عن غذائها أو على تناوله بنفسها ، أو لا تقوى أجهزتها على تناول الغذاء العادى لفصيلتها بل تحتاج إلى غذاء خاص أو إلى ألبان أمهاتها أو إلى طعام مهضوم في جوف كبارها ... وهلم جرا . وتخف أعباؤها وتقل تكاليفها إذا نشأت الصغار قوية قادرة على الحركة مكتملة الحواس والأجهزة قادرة على البحث عن غذائها وتناوله بنفسها ؛ فتستحيل النزعة فى هذه الحالة إلى مجرد تعهد ورعاية كما هو الشأن فى صغار الدجاج والبط والإوز .

وتختلف مدتها كذلك باختلاف أمد الطفولة والفترة التى تظل الصغار فى أثنائها غير قادرة على القيام بنفسها بما تحتاج إليه . فقد تصل إلى عدة سنين كما هو الشأن فى فصيلة الفيلة التى لا ينفطم صغارها إلا بعد السنة الثالثة أو الرابعة ولا تستغنى عن رعاية الكبار لها إلا بعد عدة سنين أخرى . وقد لا تتجاوز هذه المدة بضعة أسابيع أو أيام كما هو الشأن فى صغار الحمام والدجاج والوبر(١) .

وترجع أهم أعبائها إلى إطعام الصغار أو إرضاعها أو جلب الغـــذاء لها أو مساعدتها على البحث عنه ، وإلى تدفئتها ، وتنظيفها ، وحمايتها من الاعتداء ، ومساعدتها على التحرك والانتقال أو حملها فى أثناء انتقال الكبار كما هو الشأن فى كثير من الفصائل الحيوانية والطيور وخاصة لدى القردة والحيوانات ذوات الجراب والخفافيش . ففى فصيلة القردة تنتقل الأم وصغيرها متشبث بظهرها أو بطنها أو رقبتها . والحيوانات ذوات الجراب كالقنغر والأبسوم الأمريكى تحمل صغارها فى جرابها وتنتقل بها . فأنثى القنغر Kangouroa تظل حاملة صغارها فى جرابها مدة طويلة لإعفائها من الحركة من جهة ولحمايتها من جهة أخرى ، ولذلك لا يلبث صغيرها أن يحس أى خطر حتى يقفز مندفعاً كالسهم إلى جراب

---

(١) بسكون الباء ، وهو حيوان كالأرنب الهندى لا يمضى أسبوع على ولادته حتى يبلغ ربع أمه فى الجسم ويكاد يستغنى عنها (المرجع السابق ص ٤٨) .

أمه (١) .. وأما الأبسوم الأمريكى فتضع أنثاه فى البطن الواحدة اثنى عشر صغيراً لا يتجاوز حجمها جميعا تجويف ملعقة . وتظل حاملة لها فى جرابها حتى تقوى على الحركة وتستغنى عن حماية أمها (٢) . وأنثى الخفاش (وهى من ذوات الثدى القادر على الطيران) من أشد الحيوانات رعاية لصغارها . ولذلك تضم أجنحتها على فلذات أكبادها عند أقل ما يروعها ، وكثيراً ما تحملها وتطير بها ليلا فى مسابحها . وقد ترى الواحدة منها محلقة فى الجو ، وقد تعلق بها أربعة من صغارها يبلغ مجموع وزنها ما يقرب من وزن الأم نفسها (٣) . وبعض أنواع الخفافيش لا تلد أنثاها أكثر من ولد واحد . ومن ذلك ما يسمى مصاص الدماء الذى يعيش فى خط الاستواء والوطاويط الضخمة التى تقطن أمريكا الجنوبية . وفى هذه الأنواع كثيراً ما يرى الوليد متعلقا بصدر أمه حين يكون صغيراً . فإذا كبر رأيته متعلقا بجنبها قريبا من جناحيها لكى يحميها عند المخافة. (٤)

وقد زود بهذه النزعة الأم وحدها فى بعض طوائف الحيوانات كالأنعام المستأنسة والقطط والكلاب ، والأب وحده فى طوائف أخرى كالنعام والحجل والتاليجال ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فى النزعتين السابقتين (٥) ، والأب والأم معا فى كثير من الفصائل كالأسد والعصافير والحمام ، وغير الأب والأم فى بعض فصائل الحشرات ، كما هو الشأن فى فصائل النحل والنمل . ففى فصائل النحل مثلا تقوم عقيمات الإناث (طوائف العاملات) وحدها بتربية الصغار مدفوعة إلى ذلك بنزعة فطرية ؛ بينما لا تقوم الأم نفسها (اليعسوب) بشىء ما حيال صغارها ؛ وأما الآباء التى تتألف من ذكور النحل المخصبة فتقتلها عقيمات الإناث بمجرد

---

(١) Larousse du XXèm Siècle (Kangourou).

(٢) ريموند دعارز ، المرجع السابق ص ٤٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٥) انظر صفحات ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ .

أن يتم تلقيحها ليعسوب . وقد رأينا أنه فى بعض قرى النمل يقوم الرقيق الذى تتألف من نمل عقيم ينحدر من فصيلة أخرى تختلف عن الفصيلة التى يخدمها بتربية صغار أسيادها وتوفير ما تحتاج إليه مدفوعة إلى ذلك بفطرتها ، بينما لا يقوم الآباء ولا الأمهات بشىء ما حيال صغارها ، بل لا تقوم بشىء ما حيال أنفسها(١) .

هذا ، ولأهمية هذه النزعة وتوقف بقاء الأنواع عليها لا تكاد تخلو منها فصيلة من فصائل الحيوان .

— ١٥ —

نزعة ادخار الأغذية لحاجة الصغار أو الكبار أو لكليهما معا

تبدو هذه النزعة عند بعض فصائل الذئاب والثعالب والسنانير إذ تدخر ما يزيد عن حاجتها من اللحوم فى نقرة تحفرها وتغطيها بالتراب ؛ وعند فصيلة السنجاب التى تحفر فى الأشجار ثقوبا تدخر فيها مدة فصل الصيف ما يعوزها الحصول عليه من غذائها فى فصل الشتاء من الفواكه والحبوب ؛ وعند طوائف البجع التى تدخر بقربتها التى تتصل بالشق الأسفل من منقارها ما يفيض عن حاجتها الراهنة مما تصيده من السمك وما عسى أن تحتاج اليه فى المستقبل لغذائها وغذاء أفراخها .

ولكن أهم مظاهر هذه النزعة وأدقها وأشدها طرافة تبدو عند طوائف الحشرات وخاصة عند النمل ونحل العسل والإكسيلوكوب والسفكس .

أما النمل فقد أصبحت هذه النزعة لديه مضرب الأمثال . فهو لا ينفك

---

(١) انظر صفحات ١٤٩ — ١٥٢ .

دائبا فى طلب الرزق ، وتتجه معظم جهوده إلى الادخار . فيجمع فى أجحاره فى بعض الفصول الخصبة من السنة ماعسى أن تحتاج إليه كباره وصغاره من الغذاء فى الفصول المجدبة أو التى لا يقوى فى أثنائها على بذل مجهود كبير .

وأما النحل فتقوم إناثه العقيمات (طوائف العاملات) ببناء أقراص عجيبة من الشمع وتختزن فيها من العسل فى الفصول التى تغزر فيها الأزهار ماتحتاج إليه الخلية لغذاء كبارها وصغارها فى الفصول الأخرى .

وأما الإكسيلوكوب Xylocope (وهى فصيلة من النحل تعيش فرادى لا جماعات) فتبدو هذه النزعة عند إناثها . فحينما تشعر الأنثى بدنو وضع البيض تعمد إلى خشبة يابسة فتحفر فيها ثقبا مستعرضا واسعا وتدخر فى جزء منه كمية من الأزهار التى يتألف منها غذاء صغارها ، وتضع على الأزهار بيضة ، ثم تصب على الدقيق الذى أخرجته من الخشبة فى أثناء ثقبها لها كمية من سائل تفرزه وتخلط الدقيق بهذا السائل فيتألف منهما عجينة تبنى بها كرة رقيقة جوفاء تحيط بالبيضة وبما تحتها من الأزهار ؛ وتكرر أعمالها هذه مع كل بيضة من بيضاتها الثلاث ؛ ثم تغادر الثقوب لا تلوى على شىء مما فيها ؛ ولا تعيش بعد ذلك إلا لحظات . فإذا خرج صغارها من بيضها وجد كل منها فى كرته كمية من الأزهار الصالحة لغذائه ، فيعيش عليها حتى يبلغ أشده ، ويثقب الكرة المحيطة به ، وينسل منها إلى حيث يكدح فى سبيل الحياة (١) .

وأما فصيلة السفكس Sphex (وهو نوع من الزنابير يتغذى كباره بالنبات وصغاره بلحوم بعض الحشرات الحية الطازجة) فقد بلغت هذه النزعة لدى إناثها شأوا كبيرا فى دقتها وما تقتضيه من حذق ومهارة . فحينما تشعر أنثى السفكس بدنو موعد بيضها تحفر فى الأرض الرملية شقا ، ثم تقيم على جوانبه عدة غرف ،

---

(١) يرجع الفضل فى الكشف عن أعمال هذه الحشرات وتوضيحها إلى العلامة ميلن إدوار Miln Edward .

وتضع بيضة فى كل غرفة منها ، ثم تصيد حشرة من الحشرات التى تتغذى بها صغار فصيلتها وتضعها فى غرفة من هذه الغرف ، ثم تجرى عليها عملية جراحية دقيقة تشل بها حركتها حتى لا تستطيع مغادرة الغرفة التى وضعت فيها بدون أن تميتها حتى لا تتعفن فتصبح غير صالحة لغذاء صغارها ، وذلك بأن تخز الحشرة بإبرتها تسع وخزات متواليات فى مراكزها العصبية وتدق رأسها دقا خفيفاً بين فكيها . وقد ثبت بالتجارب أن أقل من تسع وخزات لا يكفى لشلل الحشرة ومنعها من الفرار وأن أكثر منها يقضى على حياتها ، وثبت أن كذلك أن وخزها فى غير الموطن التى تخزها فيها لا يحقق الغرض المقصود . وتكرر أعمالها هذه فى جميع الغرف التى أقامتها على جانب الشق . فحينما يتفقس صغارها عن بيضها يجد كل منها فى غرفته حشرة حية طازجة صالحة لغذائه فيعيش عليها حتى يبلغ أشدة ويغادر شقه . ويرجع الفضل إلى العلامة هنرى فابر H. Fabre فى الكشف عن هذه النزعه عند السفكس وتفصيل أعمالها(١) .

وقد أتيح لى أن ألاحظ بنفسى أعمال نوع من هذه الحشرات فى مصر . ففى يوم ٣٧/٨/٨ رأيت واحدة منها تحوم حول ثقب من الثقوب التى تسوى فى أعلى الحوائط لتجميع أسلاك الكهرباء ، وبالتأمل فى هذا الثقب لحت فيه خلايا من طين . فصعدت على سلم ونزعت هذه الخلايا ، فإذا بها تتألف من غرفتين إحداهما مسدودة بالطين والأخرى لم تسد بعد : فأزلت سداد أولاهما بدبوس صغير . فوجدت بها نحو عشر حشرات صغيرة ومتوسطة معظمها من فصيلة العناكب ، ووجدت جميع هذه الحشرات حية ولكن لا تستطيع الحركة .

---

(١) Henri Fabre : Souvenirs entomologiques; Rousrat : Psychologie, p. 481 : Darwin, op. cit. 290.

ووجدت بينها دودة صغيرة ظهر لى من اختبارها أنها قادرة على الحركة ومن شكل جسمها أنها من صغار الزنابير لا العناكب . ثم أفرغت ما فى الغرفة الثانية فإذا به يتألف من حشرات يقل عددها عن حشرات الغرفة الأولى (لأن هذه الغرفة لم تكن قد ملئت بعد) ، ووجدت بينها بيضة طويلة صفراء . — ومن هذا يظهر أن النوع الذى لاحظه « هنرى فابر » يختلف قليلا فى أعماله عن النوع الذى لاحظته .

* * *

وإن تأملا فى هذه النزعات الغريبة وماشا كلها ليفسر لنا بعض ما أشار إليه القرآن الكريم فى عبارة موجزة بليغة إذ يقول : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم[1] » ، وإذ يقول : « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى[2] » ؛ صدق الله العظيم .

---

(١) آية ٣٨ من سورة الأنعام .

(٢) وردت هذه العبارة على لسان موسى فى أثناء حواره هو وأخيه هرون مع فرعون : « قال فمن ربكما ياموسى ؟ قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » (آيتى ٤٩ ، ٥٠ من سورة طه) .

أهم مراجع الخاتمة

1 — Bühner : La Vie Psychique des Bêtes.

2 — Darwin : L'Origine des Espèce.

3 — Delacroix : Le Langage et la Pensée.

4 — Dumas et Collaborateurs : Traité de Psychologie.

5 — Espinas : Des Sociétés animales.

6 Fabre (Henri) : Souvenirs entomologiques.

7 — Huber (P.) : Mœurs des Fourmis.

8 — Köhler. : L'Intelligence des Singes Supérieurs.

9 — Larousse du XXe siècle.

10 — Letourneau : L'Evolution de l'Esclavage.

11 — Lubbock : Ants, Bees, and Wasps.

12 — Ribot : l'Evolution des Idées Générales.

13 — Romanes : Animal Intelligence.

14 — Roustant : Psychologie.

15 — مجلة المختار عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ (فصل عنوانه ولادة الحيوان وأولاده ، مختصر من مجلة « التاريخ الطبيعي » للأستاذ ريموند دتمارز .

16 — علي عبد الواحد وافي : نشأة اللغة عند الإنسان والطفل

17 — علي عبد الواحد وافي : اللغة والمجتمع

18 — علي عبد الواحد وافي : الوراثة والبيئة

19 — علي عبد الواحد وافي : الهنود الحمر

فهرس

الموضوع	الصفحة

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية

بإشراف الأستاذ عمر الدسوقى

رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم

جامعة القـاهرة

ظهر منها :

١ — ابن الأثير ومقاييسه النقدية :

للدكتور زغلول سلام المدرس بجامعة الإسكندرية

٢ — الرمزية فى الأدب العربى :

للدكتور درويش الجندى المدرس بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

---

٣ — كتب دورية فى شتى فنون المعرفة صدر منها :

١ — قصة الملكية فى العالم : من سلسلة حياة المجتمعات . تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى ، والدكتور حسن سعفان .

٢ — الرومانتيكية : من سلسلة المذاهب الأدبية الكبرى
تأليف الدكتور محمد غنيمى هلال .

٣ — زرادشت : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .

٤ — كونفشيوس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان .

٥ — الفكاهة فى الأدب العربى (جزآن) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى .

٦ — قصة الزواج والعزوبة فى العالم : من سلسلة حياة المجتمعات
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى .

٧ — تاريخ الفكر الاقتصادى : من سلسلة الاقتصاد السياسى
تأليف الدكتور لبيب شقير .

٨ — بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الدكتور صوفى حسين أبو طالب .

٩ — ابن خلدون ، منشىء علم الاجتماع : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

١٠ — السرقات الأدبية : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور بدوى طبانة .

١١ — الحريات العامة بين المذهب الفردى والمذهب الاشتراكى: من سلسلة الاقتصاد والسياسة
تأليف الأستاذ طعيمة الجرف . .

١٢ — أبو حيان التوحيدى : (جزآن) من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى .

١٣ — هوميروس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب .
تأليف الدكتور محمد صقر خفاجه .

١٤ — حقوق الإنسان فى الإسلام : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى .

١٥ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الأول) : من سلسلة الأدب والنقد .
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون .

١٦ — بوذا : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .

١٧ — مونتسكيو : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان.

١٨ — أبو حنيفة والقيم الإنسانية فى مذهبه : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى .

١٩ — مع الصحفى المكافح : « أحمد حلمى » : من السلسلة التاريخية
تأليف الدكتور أحمد أحمد بدوى

٢٠ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الثانى) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون .

٢١ — من قضايا اللغة والنحو : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ على النجدى ناصف .

٢٢ — الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط : من السلسلة التاريخية
تأليف الدكتور ابراهيم أحمد العدوى .

٢٣ — الذوق الأدبى : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور على محمد الجندى .

٢٤ — تيتو ، حياته وسياسته : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ إبراهيم حسن حنبل

٢٥ — بعض مؤرخى الإسلام : من السلسلة التاريخية
تأليف الأستاذ على أدهم

٢٦ — أدباء الرومانتيكية الفرنسية : من سلسلة النقد الأدبى
تأليف الدكتور محمد غلاب

٢٧ — سماحة الإسلام : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى

٢٨ — عبد الله بن المعتز العباسى : من سلسلة الأدب والنقد .
تأليف الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى

٢٩ — أثر العلم فى المجتمع : من سلسلة حياة المجتمعات .
تأليف الدكتور تمام حسان

٣٠ — مشكلات المجتمع المصرى والعالم العربى وعلاجها فى ضوء العلم والدين :
من سلسلة حياة المجتمعات : تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

٣١ — صور أدبية : من سلسلة النقد الأدبى .
تأليف الأستاذ على أدهم

٣٢ — رأى فى أدبنا المعاصر : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ محمد عطا

٣٣ — الغزالى ولمحات عن الحياة الفكرية الإسلامية : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور بهى الدين زيان .

٣٤ — غرائب النظم والتقاليد والعادات (الجزء الأول) : من سلسلة حياة المجتمعات .
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

٣٥ — قادة التحرير العربى : من السلسلة التاريخية
تأليف الدكتور ابراهيم أحمد العدوى

٣٦ — غرائب النظم والتقاليد والعادات (الجزء الثانى) : من سلسلة حياة المجتمعات
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

مطبعة الرسالة
٣ شارع حمتوده المقاول - عابدين


Bibliotheca Alexandrina
0428146